

فن الذكر والدعاء عند خاتم الانبياء

محمد الغزالى

www.al-mostafa.com

نحن المسلمين نعرف ربنا معرفة صحيحة، ونعتز بحقوقه اعترافاً كاملاً، ونضم إلى هذا
وذاك شيئاً آخر، أن الارتفاع إلى مستوى عبوديته يتطلب قدراً كبيراً من الطهر والشرف
واللذاب. ولنشرح هذه الكلمات بإيجاز: هناك من ينكر الألوهية، وفي عالمنا جماهير كثيفة
ودول مسلمة تقوم على الإلحاد. لكننا نحن المسلمين نصوّح وننادي، ونندّد ونردد، وفي
أعماقنا إحساس بأن قلوبنا تدق، وعيوننا تبصر، وأيدينا تتحرك بقدرة الله، إحساس بأن الليل
يدبر، والصبح يتنفس، والكون كلّه يدور وفق قوانين محكمة بقدرة الله. البوّن بعيد بيننا
 وبين الملحدين. وهناك من يعرف الألوهية معرفة ردئه أو مغشوشة، ربما ظنوا أن الله ولد، أو
أن له شريكاً، أو أن هناك من يعقب على حكمه، أو من يراجع أمره!! . وذلك كلّه يرافق الجهل
 بالله، فإن المعرفة لا تصح إلا مع إدراك يوافق الواقع، وتتألق فيه الأسماء الحسنى والصفات
 العلائية! . وما أكثر الذين لا يعرفون الله المعرفة الواجبة، وفي الدنيا جماهير

غفيرة من هؤلاء الجاهلين: "وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون". وهناك من يعرف الله على قدر ما من الحق، بيد أنه يعطي نفسه حق التصرف بغير هداه، وحق الانطلاق في الأرض وفق هواه! والله عز وجل يطلب من خلقه أن ينقادوا له، وأن تقوم علاقتهم به على مبدأ السمع والطاعة: "وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين". ومعنى ذلك أن رسالة الأحياء على ظهر الأرض التقيد بأمر الله وإبداء الخضوع له، والله شرع لعباده النظام وهم شرعوا لأنفسهم الفوضى. نعم، الله أمر ونهى لا لنفع يعود عليه أو ضر يتقيه، إنما هي مصلحة البشر. وقد تجاهل الناس رسالتهم، ونسوا ربهم، وشرعوا لأنفسهم، فماذا كسبوا؟ كسبوا أزمات الجوع والخوف!! إن الساسة أحهدوا ذكاءهم في الشرق والغرب حتى درت الأرض السمن والعسل، ثم جمدوا ذلك الخير كله في أسلحة الدمار الشامل، وبقيت الأمم تلهث وراء الضرورات المضنية؟ ألا ما أشأم العصيان وأقل جدواه مهما صاحبه من ذكاء وحضارة! إن نصف الجهد في تحصيل الأقوات لو بذل في الأدب مع الله وابتغاء رضاه، لكسب الناس الدنيا والآخرة معا. إنني أنظر إلى الكفاح الوحشي في كسب الرزق، وإلى كل جبين مقطب وعين مكسورة، ثم أذكر الحديث القدسي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم :- يقول الله تعالى : ` يا ابن آدم تفرغ

لعبادتي أملأ صدرك غنى، وأسد فقرك، وإنما تفعل ملأ صدرك شغلا، ولم أسد فقرك .
وأعرف أن بعض الناس قد يسارع إلى إنكار هذا الحديث، يحسب أن المقصود منه العكوف
في المحاريب! وما درى هؤلاء أن جوهر العبادة إسلام القلب والوجه لله، ثم تغيير القدم في
ميدان الكدح الشريف دون جزع ولا هوان. إن العبادة كما هي ضراعة وتسبيح، قدرة على
امتلاك الحياة وتسخيرها لله، وإعلاء اسمه. بل إن الوعي الصحيح بحقوق الله يرتبط
بالمعنى الثاني أكثر من ارتباطه بالمعنى الأول. المعنى الأول علم، والمعنى الثاني تدريس
لهذا العلم ونشر لحقائقه وجهاد دونه، وهذا عمل الأنبياء ومن سار في آثارهم. والعبودية لله
درجة من الكمال لا تتاح لكل أحد، بل يرشح لها من استجمعوا خصالا معينة. هناك عارفون
بالله، ولكن المعرفة تتفاوت وضوها وغموضها وسطحية وعمقا. وهناك مطيعون لله، ولكن
الطاعة تتفاوت نشاطا وكسلًا، وخفة وثقلًا، وتتكلفا وترحبيا. والعبودية الكاملة إنما يحظى بها
من أشرق يقينه وطار إلى ريه بجناح من الشوق والحب. وفي طباع الناس حب لأنفسهم
ربما سيطر على مسالكهم كلها، وهؤلاء محظوظون عن الله أبدا، وليس يرقى إلى درجة
العبودية إلا امرؤ أحب الله، وأحب فيه، واقتصر بشؤون غيره، وهش لمصالح الخلق، وضاق
بآلامهم.

في ميدان العلم والدراسة ناس منسوبون لله لأنهم مرتبطون بحقائق الوحي لا يحيدون عنها يساق فيهم قوله تعالى: "ولكن كونوا ربانين بما كنتم تعلمون الكتاب وما كنتم تدرسون". وفي ميدان الجهاد الدامي ناس منسوبون إلى الله يحملون أعباء الكفاح بحقد، ولا ينكشفون تجاه الهزائم المرة، فيهم يقول الله : "وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين". إن النفس التي يقول الله لها: "فادخلني في عبادي وادخلني جنتي " نفس من طراز خاص، نفس استراحت إلى الله وتعاليمه، وأثرته على غيره من مغريات المال والجاه، ولم يكن ذلك خاطرا مساورا بل كان صيغة حياة، وتحديد وجهة. وهذا معنى النداء العالى: "يا أيتها النفس المطمئنة ارجعني إلى ربك راضية مرضية فادخلني في عبادي وادخلني جنتي". ذوو الحرمة بيننا يأبون أن يصادقوا مختل الفكر، أو معتل الخلق، أو معوج السلوك، فكيف يرتضى رب العالمين أن يتنسب إليه سقيم العقل، هابط السجايا، مضطرب السيرة؟ إن مقتوفي الآلام دون درجة العبودية المرمودة، والجنة مأوى لمن طابت سريرته، واستقامت خليقته، وقويت بالله صلته!. وما أزعم العصمة لمن بلغ درجة العبودية، فإن الخطأ طبيعة الناس ولكن عباد الله الصالحين إذا أخطاؤا مسحوا أخطاءهم بغيرات الندم حتى لا يبقوا لها أثرا.

شغفت بسير العباد الصالحين، وحاولت أن أقبس منها شعاعا استضيء به. كنت بقلبي مع موسى في مدين، وهو يحس لذع الوحشة والحاجة ويقول: "رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير". وكنت مع عيسى وهو يواجه مسألة دقيقة ويدفع عن نفسه دعوى الألوهية: "ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن أعبدوا الله ربى وربكم و كنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد". وكنت مع إبراهيم وهو بوادي مكة المجدب يسلم ابنه للقدر المرهوب، ويسأل الله الأنبياء لأهله: "ربنا إني أسكت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون". غير أنني انبهرت وتأهت مني نفسي، وأنا بين يدي النبي الخاتم محمد بن عبد الله، وهو يدعو ويدعو. لقد شعرت بأنني أمام فن في الدعاء ذاهب في الطول والعرض لم يؤثر مثله عن المصطفين الأخيار، على امتداد الأدوار. ولست في مقام مفاضلة بين أحد من النبيين، إنها حقيقة علمية رأيت إثباتها في صفحات قلائل،

مشفوعة بالدلائل التي تزدحم حولها. وقد نقول: أعلى جبل في الأرض جبل كذا في الهند! وما نقصد النيل من الجبال الأخرى، إنه ذكر حقيقة. قد نقول: إن الشمس أكبر من القمر. سبعين ألف مرة. ليكن! ذاك تقرير حقيقة

وفي هذا الكتاب سياحة محدودة في جانب شريف من جوانب السيرة، جانب الذكر والدعاء. ما فيه من توفيق هو محض الفضل الأعلى، وما قد أخطئ فيه هو رشح نفسي الأمارة بالسوء. ورجائي أن يقبل ربى هذه الكلمات في ميزان الحسنات، كما أرجوه - تبارك اسمه - أن يقبل صلواتي على النبي العربي محمد، وأن يسعدنا جميعاً بشفاعته. محمد الغزالى كيف عرفنا محمد بالله أنا أحد الألوف المؤلفة التي تؤمن بالله العظيم، وتسبح بحمده، وتقر بجلاله ومجدده، وتنتعش بنعمته ور福德ه. ولقد عرفت هذا الإله الكبير عن طريق النبي العربي محمد. قرأت كتابه، ثم درست سيرته، فتجاوزت فطرتي مع رسالته، واستراح فكري وقلبي إلى دعوته، وأصبحت واحداً من جماهير ضخمة رضيت بالله ربنا وبالإسلام ديناً وبمحمد - عليه الصلاة والسلام - نبياً ورسولاً. كان في الناس من لا يعرف الله أصلاً، فأنار محمد بصيرته، وقاده من ضميره إلى مولاه. وكان هناك من يعرفه معرفة فاسدة، يظن له ولداً يشفع، أو شريكاً ينفع، فجاء محمد - عليه الصلاة والسلام - يقرر عقيدة الوحدانية المطلقة، وينفي أن يكون لله ابن أو ابنة، أو ند أو ضد، أو شبيه في العظمة أو معقب في الحكم: "أم اتخذوا من دونه أولياء فالله هو الولي وهو يحيي الموتى وهو على كل شيء قادر وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله ذلكم الله ربى عليه توكلت وإليه أنيب فاطر السموات والأرض جعل لكم من أنفسكم أزواجاً ومن الأنعام أزواجاً يذرؤكم فيه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير له مقاليد السموات والأرض يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إنه بكل شيء عليم ومعرفة محمد بالله لا تسبقها معرفة في الأولين والآخرين، لأنها معرفة تنبع من شهود لا يخبو سنابه، ولا يغيم ضاحاه. والمسلم المتأسي برسوله يحس أن لهذه المعرفة سمات خاصة تبدو في حديثه - عليه الصلاة والسلام - فهي واضحة صادقة حارة نفاذة؟ نعم، لا غموض ولا افتعال في حديث هذا النبي عن الله، وفي ربط الناس به. وللكلام الإنساني درجة حرارة معينة يموت دونها فلا يتراك أثراً، ولا يبلغ هدفاً، وعندما يذكر محمد ربى راغباً أو راهباً يشتند النبض في الكلمات المناسبة، وتحتد العاطفة في المشاعر الحارة فلا يملك قارئ أو سامع إلا أن يخشى و يستكين لله رب العالمين. كنت أتابع يوماً درساً في عالم

الأفلاك حيث تقفز الأعداد إلى شطحات تسقيف الخيال، وتقاس المسافات بأرقام تنقضي قبل إحصائها الآجال. وتضاءلت في نفسي، ثم عدت إلى موقع الأقدام من أرضي، ونظرت إلى ما تحت الثرى، وعلمت أنني لا أدرى، ولا أرى، ترى ما هناك في أعماء هذه الكرة حتى النقطة المكسوقة من سطحها في الجانب الآخر؟ أشياء كثيرة نجهلها كل الجهل. قلت: لكن الله وصف نفسه فقال: "الرحمن على العرش استوى له ما في السماوات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى" إن اللمعة المضيئة عند سدرة المنتهى كالحبة المستخفية في ظلمات الأرض، سواء في علمه- تبارك اسمه- وهو علم مسطور في سجل بين دقيق. وملأت أقطار نفسي عاطفة إعجاب بهذا الخالق الأعلى، بيد أن الكلمات المعبرة تقاصرت ثم احتبسـت، وشاء ربي أن يلهمني ترديد كلمات تنفس عما بي، فإذا الكلمات المعبرة في حديث رواه علي بن أبي طالب

يصف صلاة النبي الكريم جاء فيه ﴿ .. إِذَا رَكَعَ يَقُولُ فِي رُكُوعِهِ: اللَّهُمَّ لَكَ رَكْعَتْ وَبِكَ آمَنْتُ وَلَكَ أَسْلَمْتُ، خَشِعْ لَكَ سَمْعِي وَبَصْرِي وَمَخِي وَعَظَمِي وَعَصَبِي ﴾ ، إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرُّكُوعِ يَقُولُ: ﴿ سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمَدَهُ، رَبِّنَا وَلَكَ الْحَمْدُ مَلِئُ السَّمَاوَاتِ وَمَلِئُ الْأَرْضِ وَمَلِئُ مَا بَيْنَهُمَا وَمَلِئُ مَا شَاءَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدَ ﴾ ، إِذَا سَجَدَ يَقُولُ فِي سُجُودِهِ: ﴿ اللَّهُمَّ لَكَ سَجَدْتُ وَبِكَ آمَنْتُ وَلَكَ أَسْلَمْتُ، سَجَدْ وَجْهِي لِلَّذِي خَلَقَهُ وَصَوْرَهُ وَشَقَّ فِيهِ سَمْعَهُ وَبَصَرَهُ. تَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ . فِي هَذِهِ الْمُنَاجَاةِ تَرَى الْأَلْوَهِيَّةَ الْكَامِلَةَ وَالْعَبُودِيَّةَ الْكَامِلَةَ. بَيْنَ يَدِي بَدِيعِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَجْثُو عَابِدُهُمْ، فِيهِمْسُ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ بِكَلِمَاتٍ تَصُورُ مَا يُنْبَغِي أَنْ يَنْطَقَ بِهِ كُلُّ فَمٍ تَحْيِي لَذِي الْأَسْمَاءِ الْحَسَنِي! إِنَّ الْمُسْلِمَ الْأُولَى. وَهَذَا تَرْتِيبُ مُحَمَّدٍ بَيْنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِيقِينَ وَالشَّهِيدَاءِ وَالصَّالِحِينَ - لَهُ فَنٌ فِي الذِّكْرِ وَالشُّكْرِ وَالإِنْبَاتِ وَالدُّعَاءِ لَمْ يَحْفَظْ مُثْلَهُ لَبِشَرٍ، وَسَنَلْقِي نَظَرَةً عَلَى مَا اثْرَ عَنْهُ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - لَنْجُلوْهُ هَذِهِ الْحَقِيقَةِ. رَجَعَتِ الْبَصَرُ فِي كُتُبِ مَقْدَسَةٍ لِأَدِيَانٍ أُخْرَى، فَوُجِدَتْهَا كُلُّهَا دُونَ مَا حَوِيَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ مِنْ إِعْظَامِ اللَّهِ، وَتَفصِيلٌ لِأَمْجَادِهِ وَمَحَمَّدِهِ؛ لَقَدْ ذَكَرَ الْقُرْآنُ أَسْمَاءَ اللَّهِ الْحَسَنِيَّ مِئَاتِ الْمَرَاتِ فِي تَضَاعِيفٍ قَصَصِهِ وَتَشْرِيعِهِ وَوَصْفِهِ لِمَشَاهِدِ الْكَوْنِ، وَمِشَاهِدِ الْبَعْثِ، وَرَفَضَ أَنْ يَكُونَ الشَّنَاءُ عَلَى اللَّهِ نَظَرِيَا لَا يَتَحَرَّكُ بِهِ فَؤَادُ وَلَا يَرْقَى بِهِ سُلُوكٌ، ثُمَّ تَرَجمَ النَّبِيُّ الْعَابِدُ مُحَمَّدٌ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ هَذَا الْمَنْهَاجُ فِي نَوَاحِي حَيَاتِهِ كُلُّهَا فَصَارَ إِنْسَانًا رِبَانِيًّا تَرَنُوا بَصِيرَتَهُ إِلَى اللَّهِ وَبِيَاسِرِ كُلِّ شَيْءٍ فِي الدُّنْيَا بِاسْمِهِ، كَأَنَّهُ مِنْهُ عَلَى مَرَأَى وَمَسْمَعٍ. إِنَّ الْغَنِيَّ بِاللَّهِ لَا تَدْنِيهِ مَشَاعِرُ الرَّغْبَةِ وَالرَّهْبَةِ، وَالْقَوِيُّ بِاللَّهِ لَا تَقْلِقُهُ

أعداد القلة والكثرة، والمراقب لله تستوي عنده الخلوة والجلوة، وطالب الآخرة لا تستخفه مآرب الحياة الدنيا. وقد كان محمد- عليه الصلاة والسلام- عامر القلب بربه، عميق الحس بعظمته، وكان ذلك أساس علاقته بالعباد ورب العباد. واسمع إليه في هذا الدعاء الجامع: اللهم بعلمك الغيب، وقدرتك علي الخلق، أحييني ما علمت الحياة خيرا لي، وتوفني إذا علمت الوفاة خيرا لي. اللهم إني أسألك خشيتك في الغيب والشهادة، وأسألك كلمة الحق في الرضا والغضب. وأسألك القصد في الفقر والغنى. وأسألك نعيمًا لا ينفد، وأسألك قرة عين لا تنقطع. وأسألك الرضا بعد القضاء. وأسألك برد العيش بعد الموت. وأسألك لذة النظر إلى وجهك والشوق إلى لقائك، في غير ضراء مضرة، ولا فتنة مضلة. اللهم زينا بزينة الإيمان واجعلنا هداة مهتدين.. . ومن مجون الناس أن يقول فريق منهم: كان محمد مدعيا للنبوة! ويحكم!!! فأين الصدق إذن؟ إن فم بشر من أزل الدنيا إلى أبداها لم ينال الله بأشرف من هذا الكلم، ولم يتوجه إليه بأحر من هذه الصراعـة. من يكون صادقا إن كان محمد مزورا؟ الواقع أن المكذبين لمحمد في درك من العجز الفكري والروحي يعي الحلماء، إن تحديـthem عن محمد كتحديث الهوام عن الكواكب السيارة. "والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد".

الحب أساسه ، والشوق مركبه محنّة البشر أنهم مكلفوون بالارتقاء إلى الملاً الأعلى على حين أنهم خلقوا من حماً مسنون! وهم ليسوا مكلفين أن يكونوا ملائكة، فهيهات هيهات ما داموا محكومين بأجهزة هذا الجسد ومطالبه المتتجدة. هم مكلفوون أن يقاوموا الإسفاف بالتسامي، والنسيان بالذكر، والأثرة بالأخوة. هم مكلفوون - بعد ما وهبوا الحياة - أن يجعلوها للله، فلا تكون أنفسهم شغفهم الشاغل، بل يكون واهب الحياة أملهم الماثل، وما فرضه هو مصدر نشاطهم، وأساس حراكهم وحماسهم. وفي هذا الكلام إجمال يحتاج إلى إيضاح، إن الملائكة لا تأكل، ولا تتكلف زرعا ولا حصادا، والبشر الذين يأكلون يصاهئون الملائكة تماماً لو أنهم زرعوا وحصدوا وأكلوا باسم الله. ووقتهم المبذول في ذلك كله يساوي وقت الملائكة المبذول في التسبيح والتحميد إذا هم لحظوا قدرة الله في الإنبات والإإنضاج، وفضله في الإطعام والكسوة والمأوى. وقد بعث الله رسلاً من بدء الخليقة ليسيروا بالأمم على هذا الدرب، لم يبعثهم ملائكة، لأنه لا علاقة للملائكة بهذا النوع من التكاليف.

وقد عجب الجاهليون من ذلك و قالوا: "أبعت الله بشرًا رسولاً قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم إنه كان بعباده خبيراً بصيراً". والنبي العربي الخاتم ضرب من نفسه المثل في إمكان أن يعيش البشر على مستوى الملائكة ذكراً لله وشكراً، والأفق الذي رفع الناس إليه لا تلمح فيه إلا صفوف المسلمين المسيحيين بحمد ربهم، أو صفوف المجاهدين الذين بذلوا في ذات الله أنفسهم وأموالهم. نعم، إن مهتماً أنشأ جيلاً من الناس يباهـي الله بهـم ملائكتـهـ لأنـهم قطعوا كلـ الجوـاذـبـ الـأـرـضـيـةـ وكـلـ إـغـرـاءـاتـ هـذـهـ الدـارـ الـعـاجـلـةـ، وـمـشـواـ وـرـاءـ نـبـيـهـ الـمـتـفـانـيـ فـيـ مـرـضـاهـ رـبـهـ، النـاشـدـ لـوجـهـهـ وـحـدـهـ، الـمـرـتـبـ بـهـذـهـ الـكـلـمـاتـ النـقـيـةـ: "قل إنـ صـلـاتـيـ وـنـسـكـيـ وـمـحـيـاـيـ وـمـمـاتـيـ لـلـهـ رـبـ الـعـالـمـيـنـ لـاـ شـرـيكـ لـهـ وـبـذـلـكـ أـمـرـتـ وـأـنـاـ أـوـلـ الـمـسـلـمـيـنـ". لـاـ يـعـرـفـ مـحـمـدـ صـلـىـ اللـهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ. مـنـ اـحـتـبـسـ فـيـ سـجـنـ الدـنـيـاـ أـوـ قـعـدـ عـنـ نـصـرـةـ الـحـقـ وـالـخـيـرـ. وـيـنـابـيـعـ الـحـيـاةـ الـعـاطـفـيـةـ وـالـفـكـرـيـةـ فـيـ نـفـسـ الرـسـوـلـ الـكـرـيمـ `مـحـمـدـ` بـنـ عـبـدـ اللـهـ تـجـيـءـ مـعـرـفـتـهـ السـاطـعـةـ بـالـلـهـ، وـذـكـرـهـ الدـائـمـ لـهـ، وـأـخـذـهـ بـنـصـيـبـهـ الضـخـمـ مـنـ معـانـيـ الـكـمالـ فـيـ أـسـمـائـهـ الـحـسـنـىـ. ذـلـكـ أـنـ اللـهـ خـلـقـ آـدـمـ عـلـىـ صـورـتـهـ، وـاستـخـلـفـهـ فـيـ هـذـهـ الـأـرـضـ لـيـكـونـ نـائـبـاـ عـنـهـ، وـمـكـنـهـ، بلـ كـلـفـهـ أـنـ يـنـشـطـ فـيـ اـسـتـغـلـالـ خـيـرـهـ وـامـتـلـاكـهـ أـمـرـهـاـ وـأـوـصـاهـ أـنـ يـحـترـمـ أـصـلـهـ إـلـهـيـ الـعـرـيقـ، فـلـاـ يـتـدـلـىـ عـنـهـ إـلـىـ نـزـعـاتـ الطـيـنـ وـوـسـاوـسـ الشـيـاطـيـنـ".

يجب أن يكون عالماً ماجداً، قادرًا كريماً، رحيمًا منعماً، وهاباً إلى آخر ما ترمز إليه أسماء الله الحسنى من صفات الكمال، وشارات العظمة والجمال. والعالم - من أزله إلى أبده - لا يعرف إنساناً استغرق في التأمل العالى ومشى على الأرض وقلبه في السماء، كما يعرف في سيرة محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم. إنه خير من حرق في نفسه، وفي الذين حوله حياة الإنسان الكامل: الإنسان الرباني المستخلف في ملکوت الله، لينقل إليه أطراضاً من حقيقة هذه الخلافة الكبيرة. وفي المواريث العقلية والعاطفية التي تركها هذا النبي الكريم، ترى كل العناصر التي يستطيع بها أي إنسان أن يقوم بوظيفته الصحيحة في الحياة. انظر إلى قوة العاطفة ودفقها في هذه المناجاة الحارة: روى الإمام أحمد وأبو داود والنسائي عن زيد بن أرقم أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول دبر صلاته: `اللهُمَّ رَبُّنَا وَرَبُّ كُلِّ شَيْءٍ` . أنا شهيد أنك رب وحدك، لا شريك لك . `اللهُمَّ رَبُّنَا وَرَبُّ كُلِّ شَيْءٍ، أَنَا شهيد أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُكَ وَرَسُولُكَ` . `اللهُمَّ رَبُّنَا وَرَبُّ كُلِّ شَيْءٍ، أَنَا شهيد أَنَّ الْعِبَادَ كُلُّهُمْ أَخْوَةٌ` . `اللهُمَّ رَبُّنَا وَرَبُّ كُلِّ شَيْءٍ، اجْعَلْنِي مُخْلِصاً لَكَ وَأَهْلِي، فِي كُلِّ سَاعَةٍ مِنَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ` . `يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ، اسْمِعْ وَاسْتَجِبْ` . `اللهُ أَكْبَرُ الْأَكْبَرُ، نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ` .

الله الأكبير الأكبير، حسبي الله ونعم الوكيل . ` الله الأكبير الأكبير . إن ألفاظ اللغة حين تعجز عن ملاحة هذا الجيشان المناسب في كل دعوة تجعل الرسول المنيب المتعبد يلجاً إلى التكرار في العبارة الواحدة لينفس عما استثنى في صدره من روعة ومحبة وإجلال. إنه في ظاهره ترداد للفظ واحد، وهو في باطنها تعبير عن معانٍ متعددة من الولاء والهيام. ويستوقفك في هذا الدعاء أن تتوسط شهادة النبي لشخصه بالرسالة، بين توحيد الله، والإقرار بأن العباد كلهم أخوة. ما معنى أن يقول محمد لربه: أشهد أن محمداً عبدك ورسولك ؟ ذلك ضرب من الإصرار على تحمل الأمانة وإبلاغ الرسالة للناس كافة مهما كذبوا بها، وتنكروا لصاحبها.

أربع وعشرون ساعة من حياة عريضة لنتأمل في هذه الصورة، صورة يوم واحد من حياة نبي الإسلام. لقد صحا من نومه قبل الفجر بيقين، وظلمة الليل لا تزال مخيمه على كل شيء، إنه يتحرك مع طلائع الصبح المقبل قائلا : ﴿الحمد لله الذي رد إلـي روحـي، وعافـاني في حـسـدي، وأذنـ لي بـ ذـكـرـه﴾ . انظر كـيف يـستـقـبـلـ الحـيـاـةـ بـتـرـحـابـ وـتـفـاؤـلـ : ﴿الـهـمـ لـهـ الـذـيـ رـدـ إـلـيـ رـوـحـيـ﴾ . إنـ العـمـرـ الـذـيـ مـلـكـناـهـ نـعـمـةـ نـحـمـدـ اللهـ عـلـيـهـاـ،ـ وـيـنـبـغـيـ أـنـ نـحـسـنـ اـسـتـغـلـالـهـاـ.ـ إنـ الـحـيـاـةـ فـرـصـةـ النـجـاحـ لـمـنـ أـرـادـ النـجـاحـ،ـ وـلـذـكـ اـمـتـنـ اللهـ بـالـشـرـوـقـ وـالـغـرـوـبـ عـلـىـ عـبـادـهـ: ﴿الـلـهـ الـذـيـ جـعـلـ لـكـمـ الـلـيـلـ لـتـسـكـنـواـ فـيـهـ وـالـنـهـارـ مـبـصـراـ إـنـ اللهـ لـذـوـ فـضـلـ عـلـىـ النـاسـ وـلـكـ أـكـثـرـ النـاسـ لـاـ يـشـكـرـونـ﴾ .ـ وـعـظـمـةـ الـحـيـاـةـ فـيـ الـعـافـيـةـ.ـ ماـ أـجـمـلـ أـنـ يـكـونـ الـمـرـءـ سـلـيـمـ الـبـدـنـ،ـ تـنـهـضـ أـجـهـزـتـهـ وـعـضـلـاتـهـ بـوـظـائـفـهـاـ كـلـهـاـ دـوـنـ إـعـيـاءـ أوـ مـلـالـ.ـ إـنـ الـمـسـلـمـ عـنـدـئـذـ يـنـطـلـقـ فـيـ كـلـ أـفـقـ لـيـؤـدـيـ وـاجـبـاتـهـ باـقـتـدارـ وـرـغـبـةـ.ـ وـذـكـ سـرـ حـمـدـ اللهـ عـلـىـ الـعـافـيـةـ الـمـتـاحـةـ.ـ وـنـقـفـ طـوـبـلـاـ عـنـدـ قـوـلـ الرـسـوـلـ: ﴿وـأـذـنـ لـيـ بـذـكـرـهـ﴾ .ـ أـرـأـيـتـ أـدـبـ

العبودية في شمائل العابد الرقيق؟ إن منحه يوماً جديداً إذان له باستئناف العبادة من مطلع الفجر. ويبدأ العبد الشكور بذكر ربه بكلمات يقطر اليقين والحب من كل حرف فيها، يقولها في الصباح والمساء على سواء `اللهم إني أأسأك العافية في الدنيا والآخرة. اللهم أأسأك العفو والعافية في ديني ودنياي وأهلي ومالي. اللهم استر عوراتي وآمن رواعتي. اللهم احفظني من بين يدي ومن خلفي وعن يميني، وعن شمالي، ومن فوقي، وأعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتي . قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لي: ` قل إذا أصبحت وإذا أمسيت: اللهم عالم الغيب والشهادة، فاطر السموات والأرض، رب كل شيء ومليكه، أشهد إلا إله إلا أنت، أعوذ بك من شر نفسي، وشر الشيطان وشركه ` وفي رواية: ` وأن أفتر على نفسي سوءاً، أو أحρه إلى مسلم ` . مع طلائع اليوم المُقبل يقول الرسول هو وأصحابه: ` أصبحنا على فطرة الإسلام وكلمة الإخلاص، وعلى دين نبينا محمد، وعلى ملة أبيينا إبراهيم حنيفا، وما كان من المشركين .` وإنكار الأصحاب والأتّباع أنهم على دين نبيهم محمد ظاهر، فما معنى أن يقول ذلك النبي نفسه؟ لقد تكرر في أدعيَة كثيرة أن يشهد الرسول لنفسه بالنبوة، أو بأن محمداً حق. وأرى أن ذلك لم يُقصد حسنة منها: أنه أول ملتزم بتنفيذ ما جاء به، فكثير من أهل الدين ورؤسائه يحسبون الدين بلاغاً للآخرين وتکليفاً، أما هم ففوق المسائلة به. ومنها: مراجعة الكفار والمنكرين الشائين، وجعل ذلك حقيقة لا تنال منها الشبهات والأوهام

ومنها استشعار نعمة الله على صاحب الرسالة، وإبراز الرضا والسعادة بها شكرًا لله الذي أصطفى. وقد كان القلب الشريف يجيش بمشاعر التقدير والإعظام لفضل الله منذ يصبح، ويترجم عن ذلك بكلمات رائقة: `اللهم ما أصبح بي من نعمة أو بأحد من خلقك فممنك وحدك لا شريك لك، فلك الحمد، ولك الشكر` . `اللهم إني أصبحت منك في نعمة وعافية وستر، فأتم نعمتك علي وعافيتك، وسترك في الدنيا والآخرة` . وروى أبو هريرة أن رسول الله قال: `ما من رجل ينتبه من نومه فيقول: الحمد لله الذي خلق النوم واليقطة، الحمد لله الذي بعثني سالما سويا،أشهد أن الله يحيي الموتى، وهو على كل شيء قادر.. إلا قال الله تعالى: صدق عبدي` . وجميل أن يثنى المرء على مالك الملك، فيستمع الله إلى الثناء المهدى، ويقبله بالتصديق، ونسبة القائل إلى عبادته، يقول عنه: صدق عبدي. وعن أبيمالك الأشعري أن رسول الله عظيم قال: `إذا أصبح أحدكم فليقل: أصبحنا وأصبح الملك لله رب العالمين، اللهم إني أسألك خير هذا اليوم، فتحه ونصره ونوره وبركته وهداه، وأعوذ بك من شر ما فيه، وشر ما بعده؛ ثم إذا أمسى فليقل مثل ذلك` . إن الناس يعيشون داخل كهف معتم من همومهم الحقيقة، أو المتخيلة. وإنه لمحزن أن عقولا ذكية لا ترى أبعد من حدران هذا الكهف، وأن قلوبها فياضة بالأسى لا تحس إلا ظلمته، وضيقه. إن الرسول العارف برره يستنكر هذا الانقطاع المخزي فيقول: `ما من

صاحب يصبح العباد إلا مناد ينادي: سبحان الملك القدس - وفي رواية - إلا صرخ صارخ: أيها الخلائق سبحوا الملك القدس. أكاد أقول: إن فؤاد محمد وحده، وهو الذي أصاخ إلى صوت الصارخ المهيب بالبشر أن يمزقوا حجب الغفلة، وأن يتوبوا إلى الملك القدس. وافتنانه - صلى الله عليه وسلم - في التذكير هو أثر استغراقه في الذكر، ورؤيته لذى الجلال. وجمهور الفقهاء لا يلزم الأمة بترديد الأذكار والأدعية التي نقلناها ونقلها هنا. إن ترديدها مستحب وحسب، وهذا صحيح. بيد أنني أرى طول التأمل في هذه الأذكار والضراعات لا بد منه حين يعتل القلب، وتضعف بالله علاقته، فإن أثرها قوي في تعريف المرء بربه، وتبصيره بمعاني الأسماء الحسنى. إن الإيمان الغامض قليل الجدوى، والإيمان الفاتر أعجز أن يهيمن على السلوك، أو يكبح الهوى. الواقع أن أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لم يحتلوا في الإيمان مكان القمة، ولم يغيروا التاريخ الإنساني، ويفيوا حكما مكان حكم، وأخلاقا مكان أخلاق، إلا لقربهم من حياة الرسول، واقتباسهم من سننه، وسريان الإخلاص من قلبه إلى قلوبهم، وحب الله من فؤاده إلى أفئتهم. هذه طباع الناس، ربما هاج أشواقهم الهاشدة شوق حار، على ما قيل: ذو الشوق القديم وإن تسلى مشوق حين يلقي العاشقين وأرى أن الاستماع إلى النبي وهو يدعو، واستبطان عواطفه وهو ينادي يشعل البصائر المنطفئة، ويدفعها دفعا إلى الإقبال على الله. ول يكن هذا اللون من الأدعية نافلة، فهناك قدر مفروض من الاتصال

بالله يتصل بالمسجد، والصلوات المكتوبات على كل مسلم. إنه خلال أربع وعشرين ساعة لا بد من الوقوف بين يدي الله خمس مرات، وقد تفترض الجماعة أو تكون سنة مؤكدة، ومكانة المسجد في المجتمع الإسلامي رفيعة، وسوف يستغرب الحديث عنها أناس أضاعوا الصلاة، واتبعوا الشهوات. مع التباس الخيط الأبيض والأسود من الفجر يبدأ الخطو إلى المسجد، وإغراء لذلك يقول الرسول الكريم: `بشر المشائين إلى المساجد في ظلم الليل بالنور التام يوم القيمة`، "يُوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ"، "يقولون ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا". وفي المشي إلى المساجد لحضور الجماعات، صح قول الرسول أنه: `ما يرفع الإنسان قدماً ويضع أخرى، إلا كتبت له حسنة، ومحيت عنه سيئة، ورفعت له درجة` . وروى ابن عباس أن النبي - صلى الله عليه وسلم - خرج إلى الصلاة بعد سماع الأذان وهو يقول: `اللهم اجعل في قلبي نوراً وفي لسانني نوراً واجعل في سمعي نوراً واجعل في بصري نوراً، واجعل من خلفي نوراً ومن أمامي نوراً، اللهم اعطني نوراً` . وقد أعطاه الله ما سأله، فكان داعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً! وليت شعرى ما تكون الإنسانية لو خلت من محمد؟ ومن سريرته النقية وبصيرته الوضاءة؟ ومن رسالته التي غسلت غسلاً ما علق بعقيدة التوحيد من لوثات الأفاكين والمخرفين. لقد ارتبط بالمسجد، وجعل تعلق القلوب به أملاً حلواً، وأحيا بسيرته

دعاً أبيه إبراهيم لما قال: "رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي رينا وتقبل دعاء". لقد تحولت الصلاة في سيرته من تكليف تصحبه المعاناة إلى سعادة تستريح إليها النفس، وهو القائل: `وَقَرْةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ` . وفي رواية كان إذا دخل المسجد يقول: `أَعُوذُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ وَبِوْجُوهِ الرَّحِيمِ وَسُلْطَانِ الرَّجِيمِ` قال: فإذا قال - المسلم - ذلك قال الشيطان: حفظ مني سائر اليوم. وفي رواية: كان رسول الله يكتمل إذا دخل المسجد حمد الله تعالى وسمى وقال: `اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي أَبْوَابَ رَحْمَتِكَ` . وإذا خرج قال مثل ذلك، وقال: `اللَّهُمَّ افْتَحْ لِي أَبْوَابَ فَضْلِكَ` . ما كان أشد حبه للصلاحة كان إذا سمع المؤذن يقول: قد قامت الصلاة يقول: `أَقَامَهَا اللَّهُ وَأَدَمَهَا` . ونحن مأمورون أن نردد كلمات الأذان ثم ندعوا للرسول، وهنا لطيفة يحسن إثباتها، إننا نقول: اللهم رب هذه الدعوة التامة، والصلاحة القائمة آت محمد الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقاما محمودا الذي وعدته. ربما تسأله سائل: لماذا لم تتجانس الكلمات في التعريف، فيقال: أبعثه المقام المحمود الذي وعدته؟ والجواب أن النبي فرح بالكلمة التي ذكرها القرآن الكريم وهو يبشر العابد المتهجد بالجائزة التي تنتظره "ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا". لقد تشبت بالكلمة المنبئة عن مكانته في الآخرة، وطلب من أمته أن تدعو الرحمن بسوق الجائزة وإنجاز الوعد، ومكافأة قوام الليل الذي تورمت قدماه من طول المناجاة والتلاوة، والركوع والتسجود.

إن لمحبة الله في قلب هذا الإنسان المتبلى مكانة لا يزحّمها شيء أبداً. ولقد ربى - عن طريق المحراب - الرجال الذين قادوا الإنسانية بعده ثقافياً وسياسياً، فما رأى الدنيا حضارة أشرف ولا أتقى مما صنع هؤلاء الربانيون من رجال محمد. رياهم بوفي قريب العهد بربه، فإذا الصحراه الغفل تتحول إلى معهد يخرج أعرف الناس بالقيم والشرائع، وأحق الناس بالإمامية والسياسة. كانت القلوب - وهو يقرأ القرآن - تكاد تطير من الروعة والخشوع وكان الأصحاب يرميرونوه وهو يرثيهم، فما يملأ أحد عينيه منه مهابة وإعزازاً. ولقد شعر الرسول الخاتم أنه أدى رسالته عندما نظر في مرض الموت إلى المصليين في المسجد، فرأهم مقبلين على الله، خالصين للحق، فاستثار وجهه كأنه صفحة مذهبة. ذاك كل ما يريد !! ما يبغي ألا أن يلقى الله بهذا الشمر الحي لجهاده الدؤوب. ترى هل تعود المساجد يوماً مصانع للرجال كما كانت قديماً؟ إن الأماكن متشابهة ولكن السكان... غير ما نهوى!. كأن مجنون ليلي كان يصف مشاعرنا عندما قال: أما الخيام فإنها كخيامهم وأرى نساء الحي غير نسائهما

أرق الدعوات بعد الطعام والشراب والمرسلون بشر لابد لهم من تغذية رتيبة، ودعك من تساؤل المشركين: ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق؟ إنه تساؤل غبي فالأكل لا يستغني عنه جسد، وإنما فكيف يحيا؟! المهم أن نعرف ماذا يأكل؟ وكيف؟. إن الذين يعيشون لغرض ضخم يطهرون رغباتهم المادية طيا في سبيل ما يتغرون، وتنشأ لديهم مآرب أخرى قد تذهلهم عن أشهى المتع. إننا في عصر تظله حضارة حضارة مادية بادية اللوهفة على اللذات العاجلة. وقد يقبل الشرفاء فيها أن يقوموا بتضحية ما لقاء أمر عظيم، بيد أنهم لا يرون تلك الغاية التي يسعون لها. أما محمد والجيل الذي استمع إليه فنسق آخر من الفكر العالي. واسمع إلى هذا الخبر: رأى النبي عمر بن الخطاب عليه ثوب بدا وكأنه جميل، فقال له: أجديد هذا أم غسيل؟ فقال: بل غسيل، فقال له الرسول داعيا: البس جديدا، وعش حميدا، ومت شهيدا. القتل في سبيل الله أحد شارات السعادة التي طلبت لعمرا مع العيش الحميد، والثوب الجديد.. هكذا اختلطت لذات الدنيا والآخرة وعيهم وأملهم، أفترى ! أولئك الرجال يعيشون لإقامة المآدب الدسمة؟

إننا لا نحقر طلب الطعام، فتلك طبيعة البشر كما بینا، ومن حق الناس أن ينعموا بضرورات مكفولة، ومرفهات كذلك لطيفة، على أن ذلك لا يعني الشره، وإن التنعم، والجزع من تحمل متاعب الجهاد والحصار. وقد كان محمد - صلی الله علیه وسلم - ذا قدرة مستغرية على العيش الغليظ والمقادير التافهة من الأغذية، ولم يؤثر عنه اكتئاث بأطابق الطعام غاليه، ومع ذلك فما أمر بشظف، ولا ثبت على زهد، ولا حرم حلالا. وكان حفيما بنعمه الله يعظمها ويشرکها ويغالي بها، ويقول: `إذا أكل أحدكم فليذكر اسم الله تعالى في أوله، فإذا نسي أن يذكر اسم الله تعالى في أوله فليقل: باسم الله أوله وأخره.` وكان إذا فرغ من طعامه قال: `الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا وجعلنا مسلمين` ويقول: `إن الله تعالى ليرضى عن العبد يأكل الأكلة فيحمد الله عليها، ويشرب الشربة فيحمد الله عليها.` إن هناك أنسا يملأون أجوفهم بالطعام والشراب، ثم يمضون لشأنهم ما يدرؤن أن لله عليهم حقا، إنهم كأي دابة دست فمها في مرودها حتى شيعت وحسب. هذا السلوك الحقير لا يليق بمؤمن. وقد كان إمام النبيين - كدآبه أبدا - يفتتن في حمد الله بعد الطعام - فمما روي عنه قوله: `اللهم أطعمت وسقيت، وأغنيت، وهديت، وأحييت، فلك الحمد على ما أعطيت.` وقوله: `الحمد لله الذي أطعمني هذا ورزقنيه من غير حول مني ولا قوة.` وفي رواية كان رسول الله إذا أكل أو شرب قال: `الحمد لله الذي أطعم وسقى، وسوغه، وجعل له مخرجا.` أو: `الحمد لله الذي من علينا، وهدانا، والذي أشبعنا وأروانا، وكل الإحسان آنانا.

إن هذه البشاشة في استقبال النعمة، وشكر مسديها الأعلى، لها دلالة يجب إبرازها، فقد كان النبي الخاتم إنسانا بعيدا عن العلل والآفات بل كان جلدا يهزم المصارعين، وفارس معارك يهرب للقاء المغيرين. والبساطة في الجسد حين تسد كل ثغرة، وتلبي كل واجب تعد خيرا عظيما. وصاحب العافية يطل على الدنيا من أرحب آفاقها، ومن حقه أن يتزود من الطعام بما يعين عليها. ولم يحرم الله مأكلا يمد الجسد بالطاقة أو يبني ما تهدم من الخلايا في كبح الحياة الطويل. ومن زعم غير ذلك فهو يفترى على دين الله، إنما كره الإسلام الصرف المتلف، والتسبّع المورث للبطنية، والبدانة، وسائر الأمراض. ولا يختلف الدين والطب في هذه الأمور، وقد حسب النبي عليه الصلاة والسلام عدد المشركين في بدر بين ألف وتسعمائة عندما علم أنهم يذبحون يوما تسعا، ويوما عشرة من الإبل. وعندما يطعم مائة من الرجال جملًا فإن نصيب كل واحد من اللحم يكفيه ويغنيه. على أن النبي عليه الصلاة والسلام في أحيان كثيرة كان يكتفي بلقيمات وتمرات، وعندما لم يكن في البيت إلا الخل، قال: `نعم الإدام الخل` وهذه هي الرجولة المرضية القوية لا تستدليها أزمة عارضة، ولا تفقد تماسكها عندما تفقد بعض ما ألغت من زاد، أو متاع. والبشر أجمعون لابد لهم من نفخ فضلاتهم بعيدا عن العيون، وقد شرع الإسلام تعاليم من الإنقاء والتطهير تليق بما ينبغي للبشر من وضوء وجمال ومرءة. وقد كان النبي إذا خرج من الخلاء يقول: `غفرانك` الحمد لله الذي أذهب عنِي الأذى، وعافاني

ومن ألطاف وأجمل ما روي عنه في ذلك: الحمد لله الذي أذاقني لذته وأبقى في قوته، وأذهب عنّي أذاه . والضمير في الجملة الثلاث يعود إلى الطعام. لأن هذه الكلمات وضعها نفر من علماء الطب والأخلاق والبلاغة. فإنها ذكرت فضل الله فيما يمر من طعام شهي، وفيما ادخله البدن من أسباب حياته ونمائه، ثم فيما استبعده هذا البدن من نفاذ تضره ولا تسرب.رأيت أجمل من هذا الحمد، وأرق من هذا السرد؟ إن النبي الإنسان دائم الاستحضار. لاله، مسارع إلى شكرها ما استطاع

مجالس النبوة قد يحتاج المرء إلى العزلة كي يحتفظ بقلبه مشرقاً وفكه ثاقباً، وعلماء النفس يقولون: إن مستوى التفكير العالى يهبط عندما يخالط الإنسان الجموع. وهذا صحيح بالنسبة إلى عظام البشر العاديين، أما رسول الله فإنهم يرتفعون بالجماهير، ولا تهبط بهم الجماهير. وقد كان من الأصحاب من يشكوا أن يقطنه العقلية في مجلس الرسول تخبوا عندما يعود إلى بيته. لقد كان محمد عليه الصلاة والسلام لفطر شهوده وقوة علاقته بربه يحول الأرض سماء، والبشر ملائكة، فأصحابه من حوله يذكرون الله ويوفرونها، ويتوافقون بعبادته، وأداء حقوقه. وكان رسول الله يمقت مجالس الغافلين، ويسمّئ من كل تجمع خلا من ذكر الله، وفي ذلك يقول: `ما من قوم يقومون من مجلس لا يذكرون الله تعالى فيه، إلا قاموا عن مثل حيفة حمار. وكان لهم حسرة . إن المجالس التي ينسى فيها الله، وتتنفس عن لفط طويل حول مطالب العيش، وشهوات الخلق هي مجالس نتنة، وماذا فيها يستحق الخلود؟ ما يستحق الخلود إلا ما اتصل بالباقي تبارك اسمه. وإذا ضم الناس مجلس يخلط بين الدنيا والآخرة فينبغي أن يستبقى خيره في مجلس ويستبعد شره بهذا الاستغفار. قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : `من

جلس في مجلس فكثراً فيه لغطه فقال قبل أن يقوم من مجلسه ذلك: سبحانك اللهم وبحمدك أشهد ألا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك، إلا كفر الله له ما كان في مجلسه ذلك . وفي حديث آخر . أنه إذا كان في مجلس خير كان كالطابع له، وإن كان مجلس تخليط كان كفارة له . إن الاختلاط بالناس ربما أثار التنافس على الدنيا، ربما أثار حب الظهور والاستطالة، ربما شغل الأذهان بقضايا تافهة، ربما قطع ما أمر الله به أن يوصل، من أجل ذلك كله جاء عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قلماً كان رسول الله . صلى الله عليه وسلم - يقوم من مجلس حتى يدعو بهؤلاء الدعوات لأصحابه : اللهم اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معاصيبك، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك، ومن اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا . اللهم متمناً بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحبيتنا، واجعله الوارث منا، واجعل ثأرنا على من ظلمنا، وانصرنا على من عادانا، ولا تجعل مصيبتنا في ديننا، ولا تجعل الدنيا أكبر همنا ومبلغ علمنا، ولا تسلط علينا من لا يرحمنا . كذلك كان النبي يختتم مجالسه، مما ينفض الناس عنه قافلين إلى بيوتهم إلا وهم يخوضون في الرحمة خوضاً

ليل أبيض وينتهي سبح النهار الطويل، وتنقضى الصلوات المكتوبات، ويخلص كل أمرٍء بنفسه، قافلاً إلى بيته ليستجم ويستريح، فهل ذلك ما يستقبل به محمد الليل الوافد؟ لو أن الفلسفة الإلهيين يصنعون في نهارهم بعض ما يصنعه محمد في ليله لكافاهم، ولحسب لهم كدحاً حسناً. إن النبي العابد يبدأ بالليل مرحلة جديدة من مراحل الإقبال على الله! وما أكثر ما رواه المحدثون عن أذكاره وأدعيته، فعن حذيفة وأبي ذر أن رسول الله كان إذا أوى إلى فراشه قال: `بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ أَحْيِ أَمْوَاتَنَا` . وعن أبي هريرة، قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : `إِذَا أَوَى أَحَدُكُمْ إِلَى فِرَاشِهِ فَلِيقِلْ : بِاسْمِكَ رَبِّي وَضَعْتُ جَنْبِي، وَبِكَ أَرْفَعْهُ، إِنْ أَمْسَكْتُ نَفْسِي فَأَرْحَمْهَا، وَإِنْ أَرْسَلْتُهَا فَاحْفَظْهَا بِمَا تَحْفَظُ بِهِ عَبْدَكَ الصَّالِحِينَ` . وهذا الحديث شرح للآلية الكريمة: "الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى". والمؤمن في تدبره للآلية والحديث معاً يشعر أن روحه في يد الله، وأنه يستمد محياه لحظة بعد أخرى هبة من رب العالمين. قد يضع جنبه فلا ينهض إلا يوم النشور، فإن كان ذلك فهو يرجو الرحمة

وإن قام ليبدأ نهارا آخر فهو يرجو أن يحيا في ضمان الله وحفظه. أترى في ذلك المنهج أثارة من اعتداد، وغرور؟ وعن البراء بن عازب، قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : `إذا أتيت مضجعك فتوضاً وضوءك للصلوة ثم اضطجع على شبك الأيمن وقل: اللهم أسلمت نفسي إليك، وفوضت أمري إليك، وألجلأت ظهري إليك، رغبة ورهبة إليك، لا ملجاً ولا منجاً منك إلا إليك، آمنت بكتابك الذي أنزلت، ونبيك الذي أرسلت.. فإن مت مت على الفطرة` . عندما يغمض المرء جفنه ويتهيأ للكرى يترك إرادته جانبها لغبوبة تطول أو تقصر. كثيرون يستسلمون للمجهول أما المؤمن فيسلم نفسه لربه: يفوض إليه أمره، ويلجئ إليه ظهره! إنه وحده الحافظ، من غيره يؤمل في دفع ضر، أو جلب خير؟ وقد يفكر المرء وهو يستعد لمنامه في مراجعة ما أصابه طول يومه من ربح أو خسارة، وما عرض له من خطأ أو صواب. الواقع أن الدعوات التيعلمنا إياها الرسول الكريم تريح الأعصاب من هذا العناء، وتصل بمشاعر الرغبة والرهبة إلى مستقرها في جنب الله، وتجعل المرء قبل هجوعه يؤكد أمرا واحدا ينادي به ربـهـ `آمنت بكتابك الذي أنزلتـ، ونبيك الذي أرسلــ ، تلك هي الفطرة التي يستريح المسلم في مهادها الوثير. وجاء في رواية أخرى أن النبي عليه الصلاة والسلام كان يقول إذا أوى إلى فراشه: `اللهـمـ ربـ السـمـوـاتـ وـربـ الـأـرـضـ وـربـ العـرـشـ العـظـيمـ رـبـناـ وـربـ كلـ شيءـ، فالـقـ الـحـبـ وـالـنـوـيـ، منـزـلـ التـوـرـةـ وـالـإـنـجـيـلـ وـالـقـرـآنـ: أـعـوذـ بـكـ مـنـ شـرـ كـلـ ذـيـ شـرـ أـنـتـ آـخـذـ بـنـاصـيـتـهـ... أـنـتـ الـأـوـلـ فـلـيـسـ قـبـلـكـ شـيـءـ، وـأـنـتـ الـآـخـرـ فـلـيـسـ بـعـدـكـ شـيـءـ، وـأـنـتـ

الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء، اقض عنا الدين، واغتنا من الفقر . وفي رواية أخرى عن علي رضي الله عنه أن رسول الله لمجبيه كان يقول عند مضجهه: اللهم إني أعوذ بوجهك الكريم، وكلماتك التامة من شر ما أنت آخذ بناصيته، اللهم أنت تكشف المغمر والمأثم .. اللهم لا يهزم حندك، ولا تخلف وعدك، ولا ينفع ذا الجد منك الجد، سبحانك اللهم وبحمدك . وفي رواية أخرى كان يقول : ` باسم الله وضع جنبي، اللهم اغفر لي ذنبي، واحسني شيطاني، وفك رهани، واجعلني في الندى الأعلى .` ونلحظ في هذه الأدعية كلها أن النبي الإنسان لهج بتمجيد الله والتحدى عن عظمته. وقد قال - وهو يتأهّب للنوم - كلاما لا يستطيعه غيره مع حدة الانتباه وتألق الذهن، صور به الألوهية في كمالها المطلق، وغناها الذي يربو إليه سائر الخلق. وهو بعد هذا الشفاء الحار يستجمع ذل العباد كلهم، فيطلب حصنا من الفقر، والدين، والإثم، ووسوس الشيطان. ويطلب المغفرة، والفكاك من كل قيد أرضي يشده إلى هذه الدنيا. لأنه ينشد الانضمام إلى الندى الأعلى، إلى الرفيق الأعلى، إلى من في السماء. إنه ما بقي في الأرض، أي ما بقي بين الناس لا يريد أن تشينه آفات الحياة، لا يريد أن يسوءه أحد، ومن ثم فهو يكره الفاقة والرذيلة، ويود من الدنيا ما يرشحه لآخرة رفيعة القدر. ولا تحسّن أنه . عليه الصلة والسلام . يأخذه النعاس العميق بعد هذه الصراعات التي ناجى بها ربه، لا .. ما هي إلا ساعة ثم يستيقظ ليلاً أمر الله باستئناف التسبيح والتحميم، في جنح الليل كما كان يصنع آناء النهار.

الم يقل الله له: "واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا". إن قيام الليل فرض عليه وحده. لينم من ينام، أما هو فقد قيل له: "قم الليل إلا قليلا نصفه أو انقص منه قليلا أو زد عليه ورتل القرءان ترتيلًا". والمأثور من سيرته الشريفة أنه كان يقوم بالقرآن أوقاتا متطاولة. وحدث وهو في آخريات الحلقة السادسة من عمره أن قام يصلى، وكان في البيت عبد الله بن عباس - وهو شاب في أوائل الصبا - فرأى أن يأتيه بالرسول العابد، وشرع الرسول يقرأ ويقرأ والشاب القوي يكайд طول القيام، ويرقب انتهاء الصلاة.. لكن روح العابد المتبتل قهر الشيخوخة ومضى يختتم سورة، ويبدا أخرى.. قال ابن عباس: لقد همممت أن أتركه يصلى وحده، وأنصرف. لقد تورمت أقدامه من طول الانتساب الخاشع بين يدي رب العالمين لكن الفؤاد العامر بالحب أرهق الجسد الزاحف إلى الستين فهو لا يحس وخز الألم قدر ما يحس سعادة الاستغراق، وحلوة العبادة، وكما قيل: فإذا كانت النفوس كبارا تعبت في مرادها الأجسام وقد يستيقظ من الليل ويرمى ببصره إلى الأفق، ويشعر بأن هذا السكون السائد له ما بعده. إن الناس سوف يصيرون بين باك وضاحك، وحي وهالك، ومهند وضال، وواحد وفاقد! إن الأقدار تعذ لهم مع الغد المنتظر أشياء كثيرة، ترى ما الموقف منها؟ إنه يقول: سبحان الله ماذا أنزل من الفتنة؟ وماذا فتح من الخزائن؟

أيقظوا صواحب الحجر . يعني نساءه . يا رب كاسية في الدنيا عارية في الآخرة . إنَّه
 يستعد لليوم الجديد قبل أن يحييء بخيره وشره، يستعد له بعبادة يحشد لها أهل بيته،
 ينبغي أن يقمن الليل معه، وأن يتهدأ لليوم الآخر. إنه يوم يقلب الأوضاع المألوفة في عالمنا
 هذا، رب كاسية في الدنيا عارية في الآخرة، ورب صعلوك هنا يكون ملكاً هناك. إنَّ الآخرة
 هي دار الحق، ولها يجب الاستعداد. وقد ينام بعد ذلك ولكن القلب المفعم بالتقوى يقطان،
 فإذا تقلب لا فراشه، أو تهياً لقيام ليلة قال: اللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن
 فيهن، ولك الحمد أنت قيوم السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت رب السموات
 والأرض ومن فيهن، ولك الحمد، أنت الحق، ووعدك الحق، وقولك الحق، ولقاوتك حق، والجنة
 حق، والنار حق، والنبيون حق، ومحمد حق، والساعة حق، اللهم لك أسلمت، وبك آمنت،
 وعليك توكلت، وإليك أبنت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت، فاغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما
 أسررت وما أعلنت، أنت إلهي لا إله إلا أنت . وكان الرسول - صلى الله عليه وسلم - يرغب
 أمته في استقبال الليل بكيان نقى نظيف فيقول: طهروا هذه الأجساد، طهركم الله تعالى،
 فإنه لا يبيت أحد طاهراً إلا بات في شعاره ملك يقول: اللهم اغفر له فإنه بات طاهراً .
 وطهارة البدن لا تغنى عن زكاة الروح، والممرء يعان على ليل طيب إذا دلف إلى فراشه، وقلبه
 مع ربه، وذكره على لسانه. عن على بن أبي طالب رضي الله عنه أن رسول الله - صلى الله
 عليه وسلم - قال له ولغاطمة رضي الله عنها: إذا أويتما إلى فراشكما، أو إذا أخذتما
 مضاجعكم فكبراً ثلاثة وثلاثين، وسبحاً ثلاثة وثلاثين، واحمداً ثلاثة وثلاثين ، وفي رواية :
 التسبيح أربعاء وثلاثين ، قال علي: مما تركته منذ سمعته من رسول الله، قيل له: ولا ليلة
 صفين قال: ولا ليلة صفين

لقد بقي على هذا الأدب مع الله ورسوله نيفاً وثلاثين سنة حتى ليلة المعركة الرهيبة بينه وبين خصمه. وكان علي كثير الهموم، بعدت عنه الراحة في هذه الدنيا، فلم يشعر بطعمنها إلا يوم ذهب إلى ربه، وقد علقت عائشة على موته المؤلم بهذا البيت: فألقت عصاها، واستقر بها النوى كما قر عينا بالإياب المسافر لكن الهموم لم تذهبه عن ذكر الله قبل كل منام، بل لعله كان يهزماها ويفل حدها بهذا الذكر الموصول. وفي ترغيب الأمة كلها في طهارة البدن والروح لاستقبال الليل جاء عن أبي أمامة رضي الله عنه، سمعت النبي - صلى الله عليه وسلم - يقول: من أوى إلى فراشه طاهراً، وذكر الله عز وجل حتى يدركه النعاس، لم يتقلب ساعة من الليل يسأل الله عز وجل فيها خيراً من خير الدنيا والآخرة إلا أعطاها إياها . وعن عائشة قالت: كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إذا أوى إلى فراشه قال: اللهم أمتنعني بسمعي وبصري، واجعلهما الوارث مني، وانصرني على عدو، وأرني منه ثارياً، اللهم إني أعوذ بك من غلبة الدين، ومن الجوع فإنه بئس الضجيع . في هذا الحديث يرجو الرسول ربه أن يبقيه سليم الحواس طول عمره، وأن يمتعه بسمعه وبصره إلى أن يموت، كما يدعوه النجاة من غلبة الديون وسطوة الجوع. إن هذا النبي الإنسان ينشد الحياة القوية العزيزة بعيدة عن متابعة البأساء والضراء، وهذا حق كل إنسان صحيح الفطرة، ودعك من كذبة المتدلين الذين يرحبون بالآلام لأنها غاية تقصد لذاتها، أو لأن الدين حرب على السلامة والكرامة. وفي هذه الكلمات دعوة نريد تفسيرها وتحديد معناها، ونسأل قبل ذلك: هل بين الرسول وبين أحد من الناس عداوة شخصية؟ كلا، فقد كان أسمح الناس بحقه الخاص، وما كان يهيجه إلا أن تستباح حقوق الله،

لينتصب حينئذ للدفاع عنها كأنه أسد غضوب. وهو عندما يسأل الله أن ينصره على عدوه فإنما يشرح بهذا السؤال قوله تعالى: "واعف عننا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين". إن الكافرين يتركون في أفندة المؤمنين جراحاً دامية، خصوصاً المؤمنين الضعاف الذين اجتاحتهم جبروت القوة فمزق شملهم، وأذل جانبهم، وضيق عليهم الدنيا الواسعة، فهي في أعينهم كسم الخياط. من حق هؤلاء المؤمنين المقهورين أن يروا ثأرهم من عدوهم، وأن يروا كبراءة الكفر ممرغة في التراب. وذاك سر الأمر بقتالهم إلى أن تذهب دولتهم: "قاتلواهم يعذبهم الله بأيديكم ويخرّهم وينصركم عليهم ويشفّ صدور قوم مؤمنين ويذهب غيط قلوبهم" إن للفطرة الإنسانية معالم ثابتة لا يسوغ محوها، ولا جعلها. وهناك تدين محبول، يؤخر العقل، ويحور على الطياع السليمة، ويتجاوز منطقها، وهذا الدين يرفضه الإسلام. ولعل من احترام الفطرة وتلبية أشواقها ما جاء عن عائشة رضي الله عنها قالت: ما كان رسول الله - منذ صحبته حتى فارق الدنيا - ينام حتى يتغىظ من الجبن والكسل، والساممة والبخل، وسوء الكبر وسوء المنظر في الأهل والمال، وعذاب القبر، ومن الشيطان وشركه . وينام الرسول في هذا الليل الحي بالظهور والذكر، وما هي إلا ساعة حتى يصحو لصلاة الفجر، ويستعد لاستقبال أربع وعشرين ساعة أخرى. يستقبلها بهذا الدعاء: أصيّنا لصلوة الفجر، وأصيّنا لاستقبال أربع وعشرين ساعة أخرى. يستقبلها بهذا الدعاء: أصيّنا لصلوة الفجر، وأصيّنا لاستقبال أربع وعشرين ساعة أخرى. يستقبلها بهذا الدعاء: أصيّنا لصلوة الفجر، وأصيّنا لاستقبال أربع وعشرين ساعة أخرى. يستقبلها بهذا الدعاء: أصيّنا لصلوة الفجر، وأصيّنا لاستقبال أربع وعشرين ساعة أخرى.

في خضم الحياة محمد - عليه الصلاة والسلام - يعبره الله، ويعرف الناس به، يذكر الله ويشكره، ويحدو قوافل الذاكرين والشاكرين، فيلهب حماسهم إذا فتروا، ويقيمهم على النهج إذا انحرفوا. بل لقد أنشأهم إنشاء من جاهلية طامسة، فعلموا من ربهم؟ وكيف يحيون له على ظهر الأرض؟ وبم يعودون إليه يوم تفتح لهم أبواب السماء؟. ولنست العلاقة بالله ساعة مناجاة في الصباح أو المساء ينطلق المرء بعدها في أرجاء الدنيا يفعل ما يريد؟ كلا، هذا تدين مغشوش. الدين الحق أن يرقب المرء ربه حيثما كان، وأن يقيد مسالكه بأوامرها ونواهيه، وأن يشعر بضعفه البشري، فيستعين بربيه في كل ما يعتريه. وقد كانت سيرة الرسول نسقاً واضحاً في عمق الصلة بالله وشمولها، فما يمكن أن يغفل عن الله في فعل أو ترك. ومن هنا وجدنا دعواته تتناول شؤون الحياة المختلفة، ولهمجها بذكر الله يخالط كل ما يضع فيه يده. كانت العاطفة المشبوهة تجعله يتعرض للمطر أول ما ينزل، يقول: `هذا مطر حديث عهد بربيه . وكان الناس إذا رأوا أول الثمر جاءوا به إليه، فإذا أخذه الرسول قال: `اللهم بارك لنا في ثمننا، وبارك لنا في مدینتنا، وبارك لنا في صاعنا، وبارك

لنا في مدنـاـ . ثم يعطيه أصغر الحاضرين من الولدان . وكان إذا عصفت الريح قال: اللهم إنى
أسألك خيرها، وخير ما فيها، وخير ما أرسلت به، وأعوذ بك من شرها، وشر ما فيها، وشر ما
أرسلت بهـ . بهذا الشعور الغامر المستوعب يلقى كل شيء، ويواجه تعاليم السماء كما
أنزلت إليهـ . فلننظر في جنبات المجتمع الإنساني لنرى كيف يبنيه محمد باسم الله وعلى
بركتهـ .

بناء البيت المسلم قد تكون الغريزة الجنسية باب شر كبير عندما تستبد بها النزوات العارضة والشهوات الثائرة، وعندما تتعذر حدود الله وحقوق الناس، عندئذ تعرض صاحبها للعار والنار. وكل الغرائز التي لا تقفها حدود الشرع والأدب لابد منتهية بأصحابها إلى بلاء غليظ، وقد قال شاعر عربي: إذا أنت لم تترك طعاما تحبه ولا مجلسا تدعى إليه الولائد تجللت عارا لا يزال يشبه سباب الرجال نثراهم والقصائد ولم يخلق الله الغرائز للسطو والختل، ولا خلقها ليتعبد بعض الناس بقتلها، والفراغ منها. وقد جعل الله للغريزة الجنسية متنفسا سمحا هو الزواج، وأسائل منها نبع الود والرحمة الذي يلطف جو البيت. وأهاب بالصالحين من عباده أن يقدروا هذه السعادة، ويمرحوا في بحبوحتها، ولا يمدوا أعينهم إلى ما وراءها، وأن يوجهوا هممهم بعد الزواج إلى تربية الأولاد وكفالة حاضرهم ومستقبلهم، وتكون جيل صالح مهذب منهم. ”قال تعالى: “والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماما”.

وال المسلم الحق يهمه مسلك بنيه نحو ربهم و إخوانهم، وليس وظيفته أن يزحم المجتمع بأولاد حبلهم على غاربهم. وتدبر دعوة إبراهيم: "رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي رينا وتقبل دعاء". إن الظفر بأولاد يقومون بحقوق الله ربح عظيم، ومن عظمة الإيمان في قلب الخليل أن تكون أمنيته ذرية صالحة. إن غيره يطلب لذريته الغنى أو الرياسة، أو ما شاء من متع الحياة الدنيا. أما ما وراء ذلك فلا اكترا ث به.. لكن أنبياء الله لهم شأن أعلى، إنهم مهمومون بأمر العقيدة : "أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءِ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتَ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ". ويبداً بناء البيت المسلم باختيار الزوجة الصالحة، وليس عن بالله في ذلك. وجاء أنه في أول لقاء بينه وبين عروسه يستحب أن يسمى الله تعالى ويأخذ بناصيتها ويقوله: بارك الله لكل واحد منا في صاحبه، ثم يدعو الله قائلا : ﴿ اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ خَيْرَهَا وَخَيْرَ مَا جَبَلْتَهَا عَلَيْهِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهَا وَشَرِّ مَا جَبَلْتَهَا عَلَيْهِ ﴾ . وما من أحد إلا وفي طباعه هنات تتطلب الستر والغفران. ومن زعم أنه رزق الكمال في شمائله جميعا، ومن زعمت أنها تمت فلا يعييها ظاهر ولا باطن، فكلها موغل في الوهم. ولو كان الزوجان صديقين فلا بد لدوام الود من غض الطرف وسؤال الله الحفظ.

ومن ميزات الإسلام أنه يجعل المطالب الطبيعية للإنسان محفوفة بذكر الله، فهو يطعم من جوع، ويروي من عطش باسم الله. وهو يمس امرأته كذلك قارنا رغبته باسم ربه، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: `لو أن أحدكم إذا أتى أهله قال: اللهم جنينا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقنا، فقضى بينهما ولد لم يضره شيطان أبداً . والمرأة تتعرض بداهة للولادة، وهكذا متع الدنيا يعقبها ما يشوبها. الأب يتعرض للكدح على أولاده، والأم تتعرض للألم الحمل والوضع والرضاع وكثيراً ما تتعسر الولادة، وتحمّل الألم عناء بالغاً. ومن الخير التوجّه إلى الله بما يرفع الكرب ويزيل الضر، مثل: `اللهم رحمتك أرجو فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين، وأصلح لي شأنٍ كله لا إله إلا أنت . ومثل: `يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث . وـ لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين . وكم لرسول الله من دعوات حافلة بحب الله، وانتظار فرجه! . والعلاقة بين الذكرة والأئنة تحتاج إلى فضل بيان، فإن النصرانية ترى من حقيقة التقوى حسم هذه العلاقة وتطلب من الصالحين والصالحات أن يصفوا آذانهم عن نداء الغريزة المكظومة. وقد قام نظام الرهبانية على هذا الأساس، ولا يزال! . وعندما نتأمل في هذه القضية نرى أن البعض ضعيف الغريزة فلا يبالي بالحرمان وأن البعض الآخر شديد النزوع، فهو إما يتخذ وسائل خفية لإشباع نهمته، أو يشتبك في حرب قاسية مع نفسه لا يخرج منها سليم الأعصاب رضي الحكم على الأمور. والحكم بأن المرأة بلغ حقيقة التقوى في هذه الحالات كلها مرفوض.

أما الإسلام فقد أباح الزواج، وبكره، وجعله من القربات إلى الله. وعندما يطمئن إلى الضمانات الخلقية عند الرجل يبيح له التعدد، وإنما منعه. والغريب أن العالم الغربي - متأثرا بالنصرانية - أثار دخانا كثيفا حول تعاليم الإسلام، وأطلق عليها السنة الشغب من كل ناحية. والأغرب أن هذا العالم الغربي بنى علاقاته الجنسية على فوضى رهيبة، فالأولاد الذين يولدون على فراش المعصية تتفاوحش نسبتهم حتى كادوا في بعض الأقطار يقاربون نسبة الأولاد العاديين. وبالنسبة إلى التعدد، فإن تنقل الرجل بين لفيف من النساء أمر مفهوم، وقد ذكرت امرأة كيندي - رئيس أمريكا الأسبق - أنه كان لزوجها بين 200 و 300 صديقة. والصالิก في العالم الغربي لا الملوك يستطيعون السطوة على مئات الأعراض. والذي يستحق الدهشة أن يدور الرجل بين حيش من العشيقات دون حرج، فإذا دار بين بعض زوجات داخل سياج من الأخلاق المحكمة وضع في قفص الاتهام!. من زعماء الغرب الكبار وساسته المشهورين رجل له في ميدان الفاحشة قدم راسخة! ومع استفاضة خبته ونسبة الخنا إليه فإن هذا لم يخدش شيئا من عظمته!. كتب الأستاذ أبيس منصور يقول : لم يكن غريبا أن يصدر في فرنسا كتاب عن نهر السياسة الفرنسية `جورج كلمنصو` 1841-1929 " وهذا الرجل خاض معارك سياسية مخيفة، واستطاع أن يتغلب على الجميع، وكان قادرًا على أن يتحدث إلى عشرين شخصا في عشرين

موضوعا في وقت واحد، ولم يكن أحد يتصور أن هذا الرجل كانت له ثمانمائة عشيقه، وكان له أربعون ابنا غير شرعيين!. ترى كم الشرعيون الذين نسلهم هذا الذئب؟. يقول أنيس منصور: لكنه عندما علم أن زوجته الأمريكية خانته نهض عند منتصف الليل وفتح لها الباب لتهبط إلى الشارع بقميص النوم!. ونعجب نحن لماذا حرم الرجل على غيره ما استباحه لنفسه!. يقول الصحافي المعلق: "كلمنصو - مثل كل الذئاب البشرية - من أكثر الناس احتقارا للمرأة، ولم يقل أحد في المرأة أسوأ ولا أبشع مما قاله هو، سواء على فراش اللهو، أو على فراش المرض!". ومع ذلك فإن مساعد وزير الدفاع الفرنسي أصدر كتابا عنه، وقاده العالم الغربي يعدونه من قممهم الرفيعة! لماذا؟ لأنه زنى، ولم يتزوج!. إن الزنى شيء يسير، أما التعدد فمنقصة تهوي بصاحبها ولو كان من العباقة! هذا هو التقليد الذي أرسى الصليبية، وباركته، وترى إشاعته بيننا. لقد ارتفعنبي الإسلام بمعنى الزواج ارتفاعا يستحق التنوية، فهو ليس سطوة رجل قوي على أشي ضعيفة. إنه عقد حر، بدأ وتم بإذن الله وفي ضمانه، وعندما خطب رسول الله الناس في حجة الوداع قال: ﴿اتقوا الله في النساء فإنكم أخذتموهن بأمانات الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله﴾ . ولهذا العقد طبيعة مادية وروحية، أرضية وسماوية، والبيت القائم عليه عامر بالسكينة والمودة والتراحم. ولهذا العقد كذلك طبيعة اجتماعية تتاح للنماء البشري أن يمتد فيه زاكيا مهديا. وقد سمي القرآن هذه الطبائع العتيدة: ﴿ حدود الله﴾ لأن الله يريد

من أركان البيت أن تكون أركانا للبر والتقوى، والتعاون المشترك على أعباء الحياة كلها. ونحن نثبت خطبة يبدأ بها الزواج، ثم نعقب بذكر دعاء يلزمه عند بدء آثاره، واطراد سيره مع الزمن، ليعلم الناس أن الزواج في دين الله ليس تلاقيا حيوانيا، ولا يفهمه كذلك إلا قطعان الرعاع. قال العلماء: يستحب أن يخطب بين عقد الزواج خطبة رقيقة مناسبة، وأفضل ذلك ما رواه عبد الله بن مسعود قال: علمنا رسول الله خطبة الحاجة: الحمد لله، نحمده ونستعينه، ونستغفره، وننحوذ به من شرور أنفسنا، من يهد الله فلا مضل له، ومن يضل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، أرسله بالحق بشيرا ونذيرا بين يدي الساعة، من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصهما فإنه لا يضر إلا نفسه ولا يضر الله شيئا . "يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منها رجالا كثيرا ونساء و اتقوا الله الذي تسألون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا". "يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تفاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون". "يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولوا سديدا يصلاح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما". ثم - بعد هذا الخطاب - يعقد الزواج مذكرة الزوج بتقوى الله، وإحسان العشرة، وإقامة حدود الله.

والمتذمِّر في الآيات المختارة يرى أنها تمهد لذلك، وتوجه لتأسيس أسرة يقوى بها الإسلام، وتدعُم بها الأمة، فالزواج عقد خطير الآثار. وتمضي السنون، ويتحول الزوجان إلى والدين، ويضحى كل منهما معلق القلب ببنشه وافد يعده امتداد حياته، وتنمو الأسرة فتصير أربعاً، وثمانية، وعشراً. وحين يمتد الزمن بالأبوبين يكبر الصغار ويسيرون في ذات الطريق الذي سلكه من قبلهما، ترى ما مسلك هذه الأجيال الجديدة بالنسبة إلى من مضى؟. يقوله عزوجل: "ووصينا الإنسان بوالديه إحسانا حملته أمها كرها ووضعته كرها وحمله وفصاله ثلاثة شهرا حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة قال رب أوزعني أنأشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحاً ترضاه وأصلاح لي في ذريتي إنني تبت إليك وإنني من المسلمين". إن الجيل الحاضر يحيي الخالق الأعلى، ويذكر آلاءه على الجيل الماضي ويستنزل فضله على الجيل اللاحق، تلك هي وظيفة البيت المؤمن، وربط الناس بربهم، وحراسة تقاليد العبادة والشرف التي وضعها لهم. فلا عجب إذا كانت حملة العرش تدعو لأهل هذه البيوت المحافظة : "ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وفهم عذاب الجحيم ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم". وسنرى أن البيت الأول في الجماعة الإسلامية، أعني بيت النبي - صلى الله عليه وسلم ومن فيه من أمهات المؤمنين، كان الأسوة الحسنة في طلب الآخرة وصدق الإقبال على الله. كان البيت النبوبي بيت ترفع على الرفاهة والترف، وإدامان للذكر والتلاوة وقيام للليل، يملأ آناءه بالتهجد، والثناء على الله. والحق أن الأسرة الإسلامية أعلى عناصر التربية والتوجيه، والحفظ عليها ضمان للاستقامة، وسناء الخلق، وسلامة الوجهة. وسنرى بعد قليل كيف كان البيت النبوبي منارة اليقين والتقوى في حياة الأمة الإسلامية كلها.

معركة الخبز يخرج المسلم من بيته ليباشر العمل الذي يؤديه، إن كان موظفاً إلى مكتبه، وإن كان عاملًا إلى مصنعه، وإن كان تاجراً إلى دكانه، وإن كان فلاحاً إلى حقله. والناس يغدون إلى أعمالهم، وشاؤون الرزق مستولية على أصحابهم، مستحوذة على أفكارهم، إنهم يريدون الكثير لأنفسهم وأهليهم، المقل يريد سعة، والموضع يريد مزيداً، ومآرب الحياة لا تقف عند حد، والقوى المبذولة وراءها تستنفذ الطاقة. ترى كم تستهلكه هذه الساحة من جهود البشر؟ كأن صاحب الرسالة الخاتمة كان يستحضر هذه المشاعر، وهو ينادي ربه عندما يخرج من بيته يقول: `بِاسْمِ اللَّهِ، تُوكِلْتُ عَلَى اللَّهِ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ أَنْ أَزِلَّ أَوْ أَزِلَّ، أَوْ أَضْلُلَ أَوْ أَضْلُلَ، أَوْ أَظْلَمَ، أَوْ أَجْهَلَ أَوْ يَجْهَلُ عَلَيَّ . . . إِنَّهُ لَا يَرِيدُ غَلْبَاً عَلَى أَحَدٍ، إِنَّهُ يَرِيدُ النَّجَاهَ مِنَ الْزَّلْلِ يَقْعُدُ فِيهِ أَوْ يَوْقَعُ أَحَدًا فِيهِ، إِنَّهُ يَبْغِي الْهُدَى لِنَفْسِهِ وَلِغَيْرِهِ، إِنَّهُ يَسْتَعِذُ بِاللَّهِ أَنْ يَجْهَلَ عَلَى أَحَدٍ أَوْ يَجْهَلَ عَلَيْهِ طَاغٌ مُفْتُونٌ، إِنَّهُ يَكْرَهُ الظُّلْمَ فِي صُورَهُ كُلُّهَا. بذلك يدعوه ربه، ويستمد منه العون، وقد طلب الرسول من كل مسلم عندما يغدو من بيته لما يهمه من شأنه أن يوثق رباطه بربه، فعن أنس بن مالك قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم: `مَنْ قَالَ - يَعْنِي إِذَا خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ - بِسْمِ اللَّهِ ،

توكلت على الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، يقال له: هديت، وكفيت، ووقيت... . إن مخالطة الناس تعرض المرء لمشكلات جمة، وقد يتولد من الاحتكاك شر حارق. واليقطة العقلية مهما كانت حادة لا تغنى عن حماية الله وهو سيحانه يقي من اعتمد عليه ولاذ به. بل ينبغي للمسلم أن يتهم قواه الذاتية، وأن يرمي باستعطاف العون الأعلى، قائلاً كما علمه نبيه: اللهم لا سهل إلا ما جعلته سهلاً، وأنت إذا شئت تجعل الحزن - الصعب - سهلاً .
وعندما تضطرب أحوال العيش، وتبرز صعوبات مقلقة، يزداد تشبيهه بربه، فعن ابن عمر عن النبي عليه الصلاة والسلام ` ما يمنع أحدكم، إذ عسر عليه أمر معيشته، أن يقول إذا خرج من بيته: بسم الله على نفسي ومالي وديني، اللهم رضني بقضاءيك، وبارك فيما قدر لي، حتى لا أحب تعجيل ما أخرت، ولا تأخير ما عجلت . سبحان الله ؛ أي علم بالنفس البشرية ومتاعبها كان عند هذا الرسول؟ وأي خزان ملأى باليقين كان يمنح منها هذا وذاك ليستبقي العلاقة بالله ثابتة هادئة. عن البراء بن عازب قال: أتى رسول الله رجل يشكو إليه الوحشة، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: أكثر من أن تقول: سبحان الملك القدس، رب الملائكة والروح، جللت السموات والأرض بالعزة والجبروت . فقال لها الرجل، فذهبت عنه الوحشة. هذا رجل من أولي الحساسية الذين يجنون إلى العزلة، ويتطيرون من الخلق، لعله من النوع الذي يقول: وإن امرءاً يمسى ويصبح سالماً من الناس - إلا ما جنى - لسعيد

لكن الحياة لا تتطامن لهؤلاء وترضيهم، فهم منها على وجل، وما تنقضي حاجتهم إليها، وقد ذهب يشكو إلى الرسول هذا الاستيحاش المعنـت، فنصحه بذلك الدعاء، الذي يدفعه دفعـة إلى الأنس باللهـ. علىـ أنـ النـبـيـ عـلـيـهـ الصـلـاـةـ وـالـسـلـاـمـ يـكـرـهـ تحـولـ الـوـحـشـةـ إـلـىـ عـجـزـ، أوـ أنـ يـكـونـ ذـكـرـ اللـهـ سـتـارـاـ لـهـزـيمـةـ نـفـسـيـةـ لـاـ تـلـيقـ، عنـ عـوـفـ بـنـ مـالـكـ: قـضـىـ رـسـوـلـ اللـهـ عـلـيـهـ الصـلـاـةـ وـالـسـلـاـمـ بـيـنـ رـجـلـيـنـ، فـقـالـ المـقـضـيـ عـلـيـهـ لـمـاـ أـدـبـرـ: حـسـبـيـ اللـهـ وـنـعـمـ الـوـكـيلـ.. فـقـالـ رـسـوـلـ اللـهـ: إـنـ اللـهـ تـعـالـىـ يـلـوـمـ عـلـىـ عـجـزـ، وـلـكـنـ عـلـيـكـ بـالـكـيـسـ -ـ بـالـعـقـلـ وـالـعـزـمـ وـالـمـثـابـرـ -ـ

إـذـاـ غـلـبـكـ أـمـرـ فـقـلـ: حـسـبـيـ اللـهـ وـنـعـمـ الـوـكـيلـ .. إـنـ الـبـصـرـ الثـاقـبـ لـمـ تـفـتـهـ حـالـةـ الرـجـلـ الـمـحـكـومـ عـلـيـهـ، لـقـدـ مـلـكـهـ الـفـشـلـ فـوـلـىـ يـسـترـ ضـعـفـهـ وـاسـتـسـلـامـهـ بـهـذـهـ الـكـلـمـةـ: حـسـبـيـ اللـهـ وـنـعـمـ الـوـكـيلـ، إـنـهـ هـنـاـ كـلـمـةـ حـقـ أـرـيدـ بـهـ باـطـلـ. عـنـدـمـاـ قـالـ هـذـهـ الـكـلـمـةـ الـذـيـنـ هـزـمـوـاـ بـالـأـمـسـ فـيـ أـحـدـ، ثـمـ أـصـبـحـوـاـ يـتـحـاـمـلـوـنـ عـلـىـ جـراـحـهـمـ، وـيـحـشـدـوـنـ آـخـرـ ماـ لـدـيـهـمـ منـ وـسـعـ لـيـثـارـوـاـ مـنـ مـشـرـكـيـ مـكـةـ لـمـ يـضـعـفـوـاـ، نـعـمـ لـمـ قـيـلـ لـهـمـ: "إـنـ النـاسـ قـدـ جـمـعـوـاـ لـكـمـ فـاخـشـوـهـمـ فـزـادـهـمـ إـيمـانـاـ وـقـالـوـاـ حـسـبـنـاـ اللـهـ وـنـعـمـ الـوـكـيلـ" .. قـالـوـاـ: لـيـبـارـكـ اللـهـ فـيـ عـزـمـهـمـ وـبـذـلـهـمـ وـاسـتـئـنـافـهـمـ لـجـهـادـ الـمـبـطـلـيـنـ. لـلـكـلـمـةـ هـنـاـ مـعـنـاهـاـ الـمـحـبـوبـ الـمـقـبـولـ. وـمـاـ يـجـوزـ أـنـ تـقـالـ الـكـلـمـةـ تـسـلـيـمـاـ بـالـأـمـرـ الـوـاقـعـ، وـتـقـاعـسـاـ عـنـ تـغـيـيرـهـ، وـانتـظـارـاـ مـنـ السـمـاءـ أـنـ تـدـافـعـ عـمـنـ لـاـ يـدـافـعـ عـنـ نـفـسـهـ. لـابـدـ لـضـمـانـ السـمـاءـ مـنـ سـعـيـ، لـاـ بـدـ لـلـأـمـلـ مـنـ عـمـلـ. مـنـ أـجـلـ ذـلـكـ قـالـ عـمـرـ: لـاـ يـقـعـدـ أـحـدـكـمـ عـنـ طـلـبـ الرـزـقـ ثـمـ يـقـولـ: اللـهـمـ اـرـزـقـنـيـ، وـقـدـ عـلـمـ أـنـ السـمـاءـ لـاـ تـمـطـرـ ذـهـبـاـ، وـلـاـ فـضـةـ

على أن الحياة المعاصرة لا تشكو من متوكلين لا يعملون، وإنما تشكو من عاملين لا يتوكلون، فإن الصبغة المادية سادت القرارات المعمورة. والناس يغدون من بيوتهم وهم يتلهفون على صيد ثمين ينقضون عليه، وإذا أمكنتهم الفرصة من مأرب سال لعابهم لآخره؟ إنهم يأكلون ولا يشعرون، ويشربون ولا يرتون. وفي هذه الحمى لا تعلق للقلب إلا بالمزيد من الحطام. فإذا حدث أن استعصى رجل على هذا المنحدر، وتراجعت إلى فؤاده خصائصه العليا، واستبان وجه ربه وسط ركام من ضباب الأهواء، فذكر اسمه، ووحيه، وتشبت بآياته وتوجيهاته، فأي ثواب يكون له؟ قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: ﴿ من دخل السوق فقال: لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك، ولهم الحمد، يحيي ويميت، وهو حي لا يموت، بيده الخير، وهو على كل شيء قادر، كتب الله له ألف ألف حسنة، ومحا عنه ألف ألف سيئة، ورفع له ألف ألف درجة . إن هذا الأجر الجزل ليس للألفاظ تمرق من الشفاه، إنها لحال من الثقة في الوجود الأعلى، والفضل الأعلى، يجعل الرجل يركن إلى من بيده الخير، فلا يحتال، ولا يغتال. وقد أكد الأنبياء أن هذه الأجر الكبيرة لا توضع بإزار الأعمال الصغيرة، ولا الهمم الصغيرة. وفي ميدان الارتزاق والكذب للنفس والولدان، قد يختلط الطيب والخبيث والنقي والمغشوش، والمسلم يعلم أنه لا يدخل الجنة لحم نبت على سحت، وأن الله طيب لا يقبل إلا طيبا، ومن ثم وجب على المؤمن أن يتحرى، وقد علمنا الرسول عليه الصلاة والسلام هذا الدعاء: اللهم اكفي بحلالك عن حرامك، وأغنني بفضلك عن سواك .﴾ اللهم إني أسألك علمًا نافعاً، ورزقاً طيباً، وعملاً متقبلاً

وفي زحام الدنيا ربما تعرض المرء لما يسوؤه، وربما استقره السفهاء ليجهل عليهم، أو ليثار لنفسه منهم، وخير له إذا خرج من بيته أن يضرم التجاوز والسامحة. روى أنس بن مالك أن رسول الله قال: أيعجز أحدكم أن يكون كأبي ضمضم؟ قالوا: ومن أبو ضمضم يا رسول الله؟ قال: كان إذا أصبح قال: اللهم إني قد وهبت نفسي وعرضي لك، فلا يشتم من شتمه، ولا يظلم من ظلمه، ولا يضرب من ضربه ! . وزحام الدنيا غاص بالمثيرات النفسية والاجتماعية، والإقبال عليها ناسب بأعماق النفس، والأمر يحتاج إلى أن نشرح موقف الأنبياء منها، تمهيدا لإيضاح موقف النبي الخاتم عليه الصلاة والسلام. الأنبياء بشر أمثالنا، ومناصبهم العالية لا تسقط عنهم مشاق التكاليف ولا تريحهم من أعباء الواجبات المفروضة، بل الصحيح أنهم أشد بلاء، وأكثر عناء، وذاك معنى قول العلماء: العصمة لا تمنع المحنـة، أي لا تمنع الاختبار، وضروب التمحيق. كان يوسف بشرا يضيق بالسجن ويتشوق للحرية، يوم قال للسجين الذي يتوقع الإفراج عنه: اذكريني عند ربك .. ولم لا يذكره، وهو بريء مظلوم؟ وهذا السجين الخارج يعرف عن يوسف أنه من الصالحين المحسنين، فليحدث عنه الملك الذي سيعمل معه. وشاء الله أن ينسى السجين الخارج، وأن يبقى يوسف بضع سنين. حتى جاء اليوم المقدور، وأرسل الملك إلى يوسف يستقدمه، ولكن يوسف كان قد بلغ حدا من الاكتمال والتأني جعله يتريث في الاستجابة ويقول: أولاً اعرفوا موقفي من القضية التي اتهمت فيها. ثم خرج يوسف ليتولى شؤون المال في مصر. وكان موسى بشرا يحس لذع الغرابة في أرض مدين، فلما سقى للفتاتين أوى إلى الظل وناجى ربه: "رب إني لما أنزلت إلي من خير .. فقير

وجاءه الغوث إذ وجد المأمن المنشود، عند سيد مدين الذي قال له: "نجوت من القوم الطالمين" ثم تزوج ابنته، وعاش في صحبته، وتهيأ للرسالة الضخمة. وكان لوط بشرًا عندما دخله الحرج الشديد، لما رأى المجرمين من قومه ينظرون بخفة وشر؟ إلى وفد الملائكة عنده. ! قد تمنى لو كان ذا عصبية يؤدب بها السفلة، حتى طمأنته الملائكة أن مصير القوم يقترب. "ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر فذوقوا عذابي ونذر". إن تعليق النبي الخاتم على بعض ما سقنا من قصص ينبيء عن جانب من أخلاقه. يقول عن لوط: `رحم الله لوطا، كان يأوي إلى ركن شديد` . يعني أن الله ما كان ليتركه، وما كان له أن يأسى على عصبية مفقودة. والواقع أن إحساس محمد بالله وتأييده لا نظير له، ولقد سمي `المتوكل` لهذه الخلة البارزة. إن هذا الاعتماد الفذ على الله هو الذي أمد بالقوة على نشر عقيدته، وتبلیغ رسالته في عالم كل شبر منه يتذكر له، وأول من صرخ في وجهه يتهدده عمه أبو لهب؟ ما كانت توجد ذرة منأمل في نجاح هذه الدعوة لولا أن صاحبها استند إلى الله، ومضى إلى غايته، لا يثنية شيء. وتعليقه على كلمة لوط الذي يوحى بالقوة والثقة غير تعليقه على كلمة يوسف الذي يوحى بالتواضع وهضم النفس إنه يقول: `لو لبشت في السجن ما لبث` . `يوسف لأجابت الداعي`

أي لاستعجلت الفرج، وتركت السجن، غير منتظر سؤال النسوة وجوابهن المعروف. إنه هنا - مع تواضعه البادي - يقرر الطبيعة الإنسانية في التلهف على الحرية، وكراه عالم السدود والقيود. والذي نخلص منه بعد هذا التقديم أن الأنبياء تهزهم المشاعر الفطرية التي تهز جمهرة البشر، وأنهم عندما يقدمون في مواطن الوعى لا يأخذون أمانا من الموت، وعندما يبذلون المال لا يأخذون ضمانا من الفقر. إن أخلاقهم العلا تكلفهم كل مغامر العظمة التي يدفعها الآخرون. ويبقى بعد ذلك تفرد المسلمين بأن أوجهم الذي يعيشون فيه لا يسمح لهم أبدا بالتدلي، فهم أزكى مكانا، وأنسى منالا. وتساءل بعدهن عن علاقة محمد عليه الصلاة والسلام بالدنيا؟ أكان يحبها أم ماذا يعاوها؟. ونجيب: إنه كان يعرف الدنيا معرفة الخبير، ويتذوقها تذوق المعافى السليم، بيد أنه كان مشغولا عنها بما هو أعظم وأشرف. إن المجد الإلهي استغرقه، فجعل في الصلاة قرة عينه، وفي الصيام مسرح روحه، وفيما عند الله شغلا عن كل جاه يسعى إليه طلاب الجاه. وقد فرض هذا النمط من الحياة على زوجاته، وأفهمهن أن طالبات الدنيا لا مكان لهن عنده: "إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحًا جميلاً". ولكنهن شغلن بما عندهن، واجتهدن أن يرتفعن إلى مستوى، من الذكر والعبادة وطول الإقبال على الله. عن حورية أم المؤمنين رضي الله عنها أن النبي خرج من عندها بكرة، حين صلى الصبح، وهي في مسجدها، ثم رجع بعد أن أضحي، وهي جالسة فيه، فقال: `ما زلات اليوم على الحالة

التي فارقتك عليهاـ؟ـ من اعتكاف وتعبدـ . قالت: نعم! . فقال النبي عليه الصلاة والسلام :ـ لقد قلت بعدك أربع كلمات ثلاث مرات لو وزنت بما قلتمت منذ اليوم لوزنتهن: سبحان الله وبحمده، عدد خلقه، ورضا نفسه، وزنة عرشه، ومداد كلماتهـ . وعن أبي هريرة، قال رسول الله عليه الصلاة والسلام :ـ لأن أقول :ـ سبحان الله، والحمد لله ، ولا إله إلا الله، والله أكبر، أحب إلي مما طلعت عليه الشمسـ . إن سعادته، وهو يردد هذه الكلمات، ويستحللي معانيها،أشهى لديه من امتلاك كل ما أضاءه النهار في دنيا الناس. وهب أنه ملك القناطير المقنطرة في الذهب والفضة، ما عساه يفعل بها؟ـ لقد قال: إنه لو كان لديه مثل جبل أحد ذهباً ما مرت عليه ثلاث ليال وعنده شيء منه. كان سيفرقه في حاجات الفقراء، ولو بقي شيء لرصده لعوارض المسغبة والبأساء التي تطرأ على الناس. ولقد كان يملك الوادي من الشاء والنعيم فلا تغيب الشمس إلا وهو في أيدي العفاة. إن حبه كان لشيء آخر:ـ للهـ، لكتابه، لمناجاته، لمرضاته. واسمع إليه يشرح مشاعره نحو القرآن العظيم:ـ اللهم أنا عبدك، وابن عبدك، وابن أمتكـ، وفي قبضتك ناصيتي بيديكـ، ماض في حكمكـ، عدل في قضاؤكـ، أسألكـ بكل اسم هو لكـ، سميتكـ به نفسكـ، أو أنزلتهـ في كتابكـ، أو علمتهـ أحدا من خلقكـ، أو استأثرتـ بهـ في مكنونـ الغيبـ عندكـ، أن يجعلـ القرآنـ الكريمـ ربيعـ قلبيـ، وضياءـ بصريـ، وذهابـ حزنيـ، وجلاءـ هميـ وغمـيـ .ـ إنـ الـوـحـيـ أـسـاسـهـ فـكـيـفـ لاـ يـكـونـ أـنـيـسـهـ الدـائـمـ؟ـ كـانـ فـيـ سـفـرـهـ يـقـطـعـ الـمـفـاـوزـ، وـهـوـ بـهـ يـصـلـيـ، وـفـيـ إـقـامـتـهـ كـانـ وـعـيـهـ نـسـيـجـاـ مـعـانـيـهـ. وجـاءـ أـنـهـ طـلـبـ مـنـ الصـاحـبـ الـكـبـيرـ عـبـدـ اللهـ بـنـ مـسـعـودـ أـنـ يـقـرـأـ عـلـيـهـ

القرآن!! فقال ابن مسعود: أقرأ عليك وعليك أنزل؟ فقال عليه الصلاة والسلام: إني أحب أن أسمعه من غيري . ويقرأ عبد الله من أول سورة النساء حتى يصل إلى قوله سبحانه: "فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا!!؟" والتفت إلى الرسول عليه الصلاة والسلام ، فإذا عيناه تذرفان، قال له: حسبيك.. . ويواصل الصيام،؟ فلا يفطر مع الغروب، ويحاول بعض صحبه أن يقلده فيقول لهم الرسول مانعا: إنكم لستم كهيئة، إني أبیت عند ربي يطعمني ويسقين . إن تبتله إلى الله أحدث تغييرا عضويا في كيانه البشري، يجعله يتقلل تقللا خطيرا من الطعام والشراب، لأنه يحيا في ملکوت آخر. ومع هذا وبعد الروحاني الساحق فقد كان يعيش بين الناس خبيرا بطبعاتهم، شاعرا بقضاياهم، يبيت فيها باسم الله، مما ينحرف قيد أنملة عن الصراط المستقيم. هل يمكن أن يكون موقفنا نحن من الدنيا على هذا الغرار؟ لا، ما نستطيع ولا كلفنا. إن بعض الفقراء والزهاد والمتصوفة حاول أن يخاصم الدنيا، ويعيش على هامشها، وأن يتشبه برسل الله في سيرتهم المترفة، وهيهات! إن حمرة الخجل لا تصنعنها بعض المساحيق المحلوبة، والأزهار الصناعية قد يكون بها شبه من الأزهار الطبيعية، بل لعلها أبقى على الأيام. لكن أين عصارة الحياة، ونعومة الملمس، ونفح الرائحة الذاتية؟. ربما نام ناس على الحصير فانطبعت عيدهاته في جلودهم. هل يمنحهم ذلك شبهها بالرسول الذي رمّق الدنيا بنظرة غائبة لأن فؤاده حاضر مع ربه، يقطن في حضرته، مستغرق في شهوده؟ إن الرجل لا يكون قائدا لأنه عثر على بدلة قائدة فلبسها.

إن لجمهور الناس موقفاً من الدنيا شرحة الرسول لهم، نحب أن يعرفوه، وحسبهم شرفاً أن يلتزموا. كان لقارون دنيا عريضة وثراء يشد إليه العيون، وكان عشاق الحياة ينظرون إليه ويقولون: يا ليت لنا مثل ما أوتى قارون. ولم يطلب الله من قارون تطبيق هذه الدنيا، لقد طلب إليه أموراً تعد على الأصابع. من مولك وكان يمكن أن تحيا صعلوكاً؟ إنه الله. إذن انظر إلى مالك وقل: ما شاء الله، لا قوة إلا بالله. بيد أن المغفور قال: عبقرتي هي سر غنائي.. ولو فرضنا جدلاً أن هذا القول صحيح، فمن الذي منحك الذكاء، والمضاء؟ إنه الله، ولكن الغافل لا يحس. إن الله عندما يعطي يطلب الاعتراف بعطائه فهل هذا تكليف صعب؟ وهو يطلب من آخذ فضله أن يرحم ولا يقسو، وأن يعتدل ولا يطغى، وأن يصلح ولا يفسد، وقد قال لقارون: «وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تننس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض». ولكن المؤسف أن ناساً كثيرين يمنحهم الله الدنيا فيذكرون أنفسهم ولا يكتترثون بغيرهم، ويضاعفون متعهم على حساب الجياع، ويعصف بأحلامهم الغرور فينظرون إلى الناس من فوق. وقد حذر الله عباده المؤمنين من هذا الطيش، وقال لهم:

يا أيها الذين آمنوا لا تلهمكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم "الخاسرون وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدهم الموت فيقول رب لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين" وفي السيرة الشريفة حيث موصول على الصدقة، ونذر شديد عن الشح، وقد ثبت أن الفلسفات الكافرة التي أغوت الجماهير ما نبتت ولا نمت إلا في بيئات الكرازة، والقسوة، والأثرة العمياء. مع مطلع كل صباح، ومع انطلاق الأحياء في فجاج الأرض يحصلون ويؤثرون، يذكر النبي للناس هذه الحقائق. عن أبي هريرة أن رسول الله عليه الصلاة والسلام قال: `ما من يوم يصبح فيه العباد إلا وملكان ينزلان يقول أحدهما: اللهم اعط منفقا خلفا، ويقول الآخر: اللهم اعط ممسكا تلفا` وفي حديث قدسي: `عدي أنفق أنفق عليك، يد الله ملأى لا تغيب عنها نفقة، سخاء الليل والنهر، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض؟ فإنه لم يفطر ما في يده . . .` وقد بين النبي عليه الصلاة والسلام أن النفقة لا تقبل إلا إذا كانت من كسب طيب، وأن الله كلف الرسل خاصة، والناس عامة أن يتحرروا في معايشهم الحال وحده، فقال للأولين: "يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا". وقال للآخرين : "يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا الله إن كنتم إيمانكم تعبدون". ونشأ عن هذه التعاليم مجتمع يحنو أغنياؤه على ضعفائه، ويرءون من عبادة المال، ويرفضون مصادره المربيبة. وكانت سيرة الرسول أمامهم شعاعا هاديا، فإن الرسول بإذاء الدنيا والمال كان يجمع بين منقبتي الغني الشاكر، والفقير الصابر.

نعم فقد كان ذا مال: "و وجدك عائلا فأغنى"، وكان غناه من تجارتة الرابحة في مال زوجه خديجة أيام شبابه. ثم كانت أنصبه من الخمس والفىء شيئا طائلا. لكنه لم يستحوذ على شيء من هذا كله، بل كان يضعه في حاجات الفقراء، وربما ظل يعطي وظل أهل بيته كذلك حتى يستنفد العطاء كل ما لديهم، فيمسون، وليس لديهم ما يغني من جوع. والمعلوم في سيرته عليه الصلاة والسلام أنه - وهو في مرض الموت - أهمته ذهيبة كانت عنده فما استراح حتى وزعت على الفقراء، وتساءل: كيف يلقى الله، وهي عنده؟ . والمعلوم كذلك أن أملاكه ليست ميراثا لأهله، وأقاربه، لقد وزعت هي الأخرى في سبيل الله. لقد كان يدعوا: اللهم اجعل رزق آل محمد قوتا - كفافا -، فلما آثر الرفيق الأعلى، كان قبل أن يصل إلى السماء أشبه بسكان السماء، ترفعا عن مطالب الأرض، وزينات الدنيا

في السفر والعودة ما أكثر ما يسافر الناس لشؤون مادية وأدبية، وللسفر مشقاته التي بذلت جهود كبيرة لتذليلها. ومع ذلك فإن فراق المرء لبيته وأحبابه، وتعرضه لتخفف عاداته في يقظته ومنامه وشرابه وطعامه، وانطلاقه مع الأقدار إلى موعد مجحول، لا يدرى بدقة كيف ينتهي؟ ولا ما يتكتشف عنه المستقبل؟ كل ذلك يجعل السفر عملاً ذا بال في حياة أي إنسان. وقد سافر النبي عليه الصلاة والسلام مرات في شبابه الباكر، وأيام عمله مع خديجة، وبعدبعثة. وهو يصف مشاعر المسافر ورغباته بصدق، وينتهز حاجته إلى الأنبياء والمعينين، فيصله بربه بأشرف الذكر، وألطف الدعاء. يقول: `من أراد أن يسافر فليقل لمن يخلف: أستودعكم الله الذي لا تضيع ودائمه..` . ويشرح ذلك في حديث آخر: `إن الله إذا استودع شيئاً حفظه` . المهم أنك وأنت راحل عن بيتك تذكر أن هناك من لا يغيب عن البيت أبداً إذا غبت أنت عنه، وهو الله، وأنك إذا رجوته الحفاظ على ولدك وأهلك، وجعلتهم وديعة لديه، عدت وهمما على خير حال. والسفر غالباً يغري الإنسان من أقنعة تحجب طبيعته، ويجرده من

أسانيد كانت له ظهيراً إبان إقامته، ومن ثم فإنه في فترة ارتحاله يشتد حسه بما يجد، وبما يفقد. وأدعية الرسول تسمو تتواءم مع هذه الأحوال تواهماً مثيراً. جاء رجل إلى النبي يقول له: إني أريد سفراً، زودني؟ قال: زودك الله التقوى، قال: زدني، قال: وغفر ذنبك، قال: زدني، قال: ويسرك الخير حيث كنت. وعن أبي هريرة أن رجلاً قال: يا رسول الله إني أريد أن أسافر فأوصني، قال: عليك بتقوى الله والتکبير على كل شرف. مرتفع - فلما ولَى الرجل قال: اللهم اطْوِلْهُ الْبَعْدَ، وَهَوْنْ عَلَيْهِ السَّفَرُ. إن السفر الآن. غيره في أيام مضت، لقد مهدت الطرق، وجرت عليها المركبات الآلية، وجلس الناس فيها مستريحين تحملهم الأدوات المبدعة على ظهر الأرض إن شاءوا، وفوق السحب إن رغبوا. وتقاربت الأزمنة مما كان يتم في شهور بشق الأنفس، أضحت يتم في ساعات بجهود محدودة. ومع هذه الراحات الميسرة فإن الأخطار المبثوثة في البر والبحر والجو لم تنعدم، وإن تلك قلت. وما بقيت نسبة ما من المخاطر، فإن دخول المرء في هذه النسبة جائز جداً، والحديث عما يواجه المسافرين من عطب وتلف لا ينقطع، ومن هنا فاستغناء الإنسان عن حماية الله جنون. إن حوادث الطرق في العالم أجمع لا تزال أفحى من شتى الأوبئة والحميات السيئة. والمنايا رصد للفتى حيث سلك! كل شيء قاتل حين تلقى أحلك وأدب النبوة في الأسفار يوجه إلى الاحتماء بالله، وارتقاء لطفه. كان

عبدالله بن عمر يقول للرجل إذا أراد سفراً: ادن مني أودعك كما كان رسول الله يودعنا، فيقول: أستودع الله دينك، وأمانتك، وخواتم عملك . قال ابن عمر: وكان النبي عليه الصلاة والسلام إذا ودع رجلاً أخذه بيده، فلا يدعها حتى يكون الرجل هو الذي يدع يد النبي عليه الصلاة والسلام. إننا بإزاء عاطفة جياشة غامرة فالرسول يستبقي يد المسافر في يده، لا يزهد فيه ولا يتتعجله، ويرسلها عندما يشاء المسافر الانطلاق لشأنه، ويذعن الله له بثلاثة أمور، أن يصون دينه، وأن يعينه على النهوض بمسؤولياته التي يرتبط بها، وأن يجعل ختام أعماله حسناً، فقد يخطئ أو يعثر، لكنه ينهض، ويصلح أمره كلّه، ويتفه على خير ما يحتاج المسافر إلى أكثر من ذلك، اللهم إلا الشعور المتجدد بما يسوق الله من نعم حيناً بعد حين، وذاك ما أبايه حديث آخر. قال علي بن ربيعة: شهدت علي بن أبي طالب رضي الله عنه أتى بدابة ليركبها، فلما وضع رجله في الركاب قال: باسم الله، فلما استوى على ظهرها قال: الحمد لله، ثم قال: سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقربين - مخصوصين - وإنما إلى ربنا لمنقلبون، ثم قال: الحمد لله - ثلاثاً - ثم قال: الله أكبر - ثلاثاً - ثم قال: سبحانك الله إني ظلمت نفسي فاغفر لي، فإنه لا يغفر الذنب إلا أنت. ثم ضحك علي بن أبي طالب، فقيل: يا أمير المؤمنين من أي شيء ضحكت؟ قال: إني رأيت النبي فعل مثل ما فعلت، ثم ضحك، فقلت: يا رسول الله من أي شيء ضحكت؟ قال: إن ربك سبحانه وتعالى يعجب من عبده إذا قال: رب اغفر لي ذنبي، يعلم أنه لا يغفر الذنب غيري . عندما يذنب العبد فهو يرتكب عملاً فيه قبح ودمامة، وهذا العمل بالإضافة إلى الله فيه معصية وجراوة، فهل يليق بالإنسان أن يسىء إلى نفسه وربه على هذا النحو؟ إنه يفعل، مهزوماً أمام شهوة غالبة، أو منساقاً مع فكرة غبية، فحتى

متى تصرعه أهواوه، ويقوده غباؤه؟ إن الله عز وجل ينتظر أوبة التائه، وهو يفرح بتوبة عبده، ويقدر الخطوات التي ترده إلى سيده. حسن أن يعرف العبد غلطه، أو يحس قباحتها، وأن يتراجع خجلان إلى ولبي أمره، وولي نعمته. البعض يبقى مكانه تحبطة به خطيبته، كجيش انهزم، وحصره عدوه يريد الإجهاز عليه. وأخرون يضخون قبل فوات الأوان، ويجيئون إلى مولاهم يقولون: "ربنا إننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار". لقد ذكر العاقل، وآب الشارد، وعلم أن له ربا يؤاخذ ويعاقب، ويثيب. ما كان أنساًه وأطغاه!!وها هو ذا قد شعر بعجزه وذله، وشعر بأن الله وحده هو الذي يمسح عاره ويداوي جراحه، ليكن!! "والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون". إن هؤلاء العائدين أرشد سيرة من مذنبين فضرين، أو مذنبين يلتمسون العفو من أناس مثلهم. وهنا قد نسأل: لماذا يستفتح السفر بهذا الدعاء؟ الحقيقة أن السفر الطويل يحدث هزة نفسية شديدة، خصوصاً إذا ترك المرء بعضه، وانطلق في فجاج الدنيا لا يعرف متى يعود؟ إن هذه الحال تدنيه من ربه وتقرره بما أسلف من ذنبه، وانطلق فمه بطلب الرحمة والغفران.

وفي رواية أخرى أن النبي عليه الصلاة والسلام كان إذا استوى على بعيره خارجا إلى سفر، يقول بعد التكبير: اللهم إنا نسألك في سفرنا هذا البر والتقوى، ومن العمل ما ترضى، اللهم هون علينا سفرنا هذا، واطو عنا بعده، أنت الصاحب في السفر والخليفة في الأهل، اللهم إني أعوذ بك من وعثاء السفر، وسوء المنقلب، وكآبة المنظر في الأهل والمال.. . وإذا رجع - من السفر. قالهن، وزاد فيهن: آييون تائبون عابدون لربنا حامدون . وجاء أن الرسول وأصحابه خلال السفر كانوا إذا علوا الثنايا كبروا، وإذا هبطوا سبحوا. كان القافلة المسافرة كلها في صلاة، فهي مع الهبوط في الأودية تسبح ساجدة، ومع الارتفاع على الربى تهتف مكبرة. أفي حياة هذه تجعل من تمجيد الله شغلها، ومن ذكره الثناء عليه الغناء الذي يريح الأعصاب، ويختصر الزمن. إن محمدًا حول وجه الأرض إلى ساحة من السماء، مشحونة بملائكة لا يبشر. كنت في سفر مع ثلاثة من الطلاب العرب، وكانت الطائرة التي تحملنا قد شرعت في الهبوط بعاصمة عربية كبيرة، وأحسست قلقا على مستقبل أولئك الشباب بعد نزولهم، قلت: ترى أين يسكنون؟ ومن سيعاشرون؟ ومن من شياطين الإنس يتربص الآن بمقدتهم؟. وبينما أنا في هواجي، إذ سمعت أصوات نفر منهم ينادون الله بالدعاء المأثور في هذه الحالات، فقلت في نفسي: لن يضيعوا، إن شاء الله. أما هذا الدعاء فقد جاء أن النبي عليه الصلاة والسلام لم ير قرية يريد دخولها إلا قال حين يراها: اللهم رب السموات السبع وما أطللن، والأرضين السبع وما أقللن، ورب الشياطين وما أضللن، ورب الرياح وما

أذرين، أسألك خير هذه القرية، وخير أهلها، وخير ما فيها، ونعود بك من شرها، وشر أهلها، وشر ما فيها.. . وفي رواية أخرى: كان رسول الله عليه الصلاة والسلام إذا أشرف على أرض يريد دخولها قال: ` اللهم إني أسألك من خير هذه، وخير ما جمعت فيها، وأعوذ بك من شرها، وشر ما جمعت فيها، اللهم ارزقني حيالها، وأعذنا من وباتها، وحبينا إلى أهلها، وحب صالح أهلها إلينا . لقد استوعبت هذه الدعوات آمال الغريب النازل ببلد لا يعرفه، وجعلته يتحرك، وهو آلى ربه، مفوض إليه أمره، مستريح إلى كفالته حيثما توجه. والتوجه إلى الله بطلب الأنس والحماية لم يكن يفارق الرسول في أي محظ ينزل به، ويستجم قليلا ثم يستأنف الترحال، والفقر إلى الله صفة ملازمـة لكل مؤمن وهو بهذا الوصف يستغنى عن الناس، ويتحصن من متابعيـهم. عن خولة بنت حكيم: سمعت رسول الله يقول: ` من نزل منزلـا ثم قال: أعوذ بكلمات الله التامـات من شر ما خلق لم يضره شيء حتى يرتحل من منزلـه ذلك . وكلمات الله التامـات، ما يكفل الله به فضله على خلفـه، من خزائن رحمـته، فلا يحتاجون بعدها إلى غيرـه، تدبر قوله تعالى: "وتمـت كلمة ربـك الحـسنـى على بنـي إسرـائيل بما صـبـروا" وقولـه: "وتمـت كلمة ربـك صـدقـا وعدـلا لا مـبدل لـكلـماتـه" والـكلـماتـ المـعـنـية تـكـوـينـية لا تـكـلـيفـية، يـأـذـنـ اللهـ فيـهاـ بـحـمـاهـ، وـغـنـاهـ لـمـنـ دـعـاهـ وـرجـاهـ. وـعـنـ عـبـدـ اللهـ بنـ عـمـرـ قالـ: كـانـ رسولـ اللهـ عـلـيـهـ الصـلـاةـ وـالـسـلـامـ إـذـاـ سـافـرـ فـأـقـبـلـ الـلـيـلـ قالـ: ` يـاـ أـرـضـ، رـبـيـ وـرـبـكـ اللهـ، أـعـوذـ . ` بـالـلـهـ مـنـ شـرـكـ، وـشـرـ ماـ خـلـقـ فـيـكـ، وـشـرـ ماـ خـلـقـ فـيـكـ، وـشـرـ ماـ يـدـبـ عـلـيـكـ

أعوذ بك من أسد وأسود - وحش وإنسان - ومن الحية والعقرب، ومن ساكن البلد، ومن والد وما ولد . الوالد والولد قيل: هما إبليس وذريته: "أفتتخدونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو" ويجوز الأراذل من أبناء آدم، فأذاهم محذور، والاستعاذه منهم واردة. والأرض الفضاء . خصوصا الصحراء - تكثر فيها الهوام الطائرة والزاحفة، ويتحقق ما يختبيء فيها، وما يbedo عليها . وعندما يرجع المسافر إلى وطنه وتقر عينه برؤيه أحبته ينبغي أن يشكر ربه فيقول: الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات؟ وهي كلمة تقال في كل ما يسر. وينبغي أن يقول له أهل بيته: الحمد لله الذي جمع الشمل بك، أو: الحمد لله الذي سلمك. وجاء أن رسول الله عليه الصلاة والسلام قفل من غزو فلما دخل استقبلته عائشة رضي الله عنها فأخذت بيده، وقالت: الحمد لله الذي نصرك وأعزك وأكرمك. لقد كان الناس يحسون أن رسول الله أبدى الخلق لربه، وأرجاهم لرحمته، وأكثرهم لهجا ذكره، ومدحه، فلا عجب إذا نابتهم نائبة أن يجئوا إليه ينشدون دعاءه، ويرقبون الخير معه. عن عائشة رضي الله عنها قالت: شكا الناس إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام قحط المطر، فأمر بمنبر فوضع له في المصلى، ووعد الناس يوما يخرجون فيه، فخرج رسول الله حين بدا حاجب الشمس، وقعد على المنبر، فكبّر وحمد الله عز وجل ثم قال: إنكم شركتم تجذب دياركم، واستئخار المطر إبان زمانه عنكم، وقد أمركم الله سبحانه أن تدعوه، ووعدكم أن يستجيب لكم ثم قال: الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم مالك يوم الدين،

لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَفْعُلُ مَا يَرِيدُ اللَّهُمَّ أَنْتَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَنْتَ الْغَنِيُّ وَنَحْنُ الْفَقَرَاءُ، أَنْزَلْنَا عَلَيْنَا
الْغَيْثَ، وَاجْعَلْ مَا أَنْزَلْتَ لَنَا قَوْةً وَبِلَاغًا إِلَى حِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ رَفَعَ يَدِيهِ فَلَمْ يَزِلْ فِي الرَّفَعِ حَتَّى بَدَا
بِيَاضٍ إِبْطِيهِ، ثُمَّ حَوَّلَ إِلَى النَّاسِ ظَهَرَهُ، وَقَلْبٌ أَوْ حَوْلَ رَدَاءِهِ، وَهُوَ رَافِعٌ يَدِيهِ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى
النَّاسِ، وَنَزَلَ فَصْلِي رَكْعَتَيْنِ فَأَنْشَأَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَ سَحَابَةَ فَرَعَدَتْ وَبَرَقَتْ، ثُمَّ أَمْطَرَتْ بِإِذْنِ اللَّهِ
تَعَالَى، فَلَمْ يَأْتِ مَسْجِدَهُ حَتَّى سَالَتِ السَّيُولُ، فَقَالَ: ﴿أَشْهَدُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ،
وَأَنِّي عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ﴾ . حَدَثَ أَنَّ سَأَلْنِي شَابٌ مَغْرُورٌ: أَتَعْرِفُ اللَّهَ بِدَلِيلٍ عَقْلِيٍّ؟ فَقُلْتُ لَهُ
وَأَنِّي أَتَضَاحُكَ: أَعْرِفُهُ عَنْ خَبْرَةِ حُسْنِيَّةٍ. قَالَ: مَا مَعْنَى خَبْرَةِ حُسْنِيَّةٍ؟ قَلْتُ: إِنَّ الْلَّقِيطَ قَدْ يَعْرِفُ
بِالدَّلِيلِ الْعَقْلِيِّ أَنَّ لَهُ أَبَا، وَإِنْ كَانَ لَمْ يَرِهِ، لَكِنَّ الْابْنِ الشَّرْفِيِّ لَا يَحْتَاجُ إِلَى هَذَا الْإِسْتِدَالَ،
لَأَنَّهُ مَغْمُورٌ بِحَنَانِ أَبِيهِ وَإِحْسَانِهِ يَحْسَهُمَا صَبَاحًا وَمَسَاءً، إِنَّهُ يَعْرِفُ أَبَاهُ عَنْ خَبْرَةِ حُسْنِيَّةٍ، كَمَا
عَبَرَتْ لِكَ، إِنِّي سَأَلْتُ اللَّهَ أَمْوَارًا لَا يَقْدِرُ عَلَيْهَا إِلَّا هُوَ، وَأَجَابَنِي تِبَارُكُ اسْمُهُ إِلَى مَا طَلَبْتُ،
فَكَيْفَ لَا أَعْرِفُهُ بَعْدَ؟ إِنَّ الْجَمِيلَ يَثْمَرُ فِي الْكَلْبِ الْعَقُورِ، أَفَلَا يَثْمَرُ فِي إِنْسَانٍ عَاقِلٍ؟ أَتَرَى
هُؤُلَاءِ الْأَصْحَابِ الَّذِينَ ابْتَلُوا بِالْجَفَافِ، وَهَدَدُوهُمُ الْجَدْبُ بِهَلاْكِ الْحَرَثِ وَالنِّسْلِ؟ لَقَدْ مَشَوْا إِلَى
مُحَمَّدٍ كَيْمًا يَدْعُونَ رَبِّهِ، وَكَيْمًا تَجْمَعُهُمْ وَإِيَّاهُ سَاحَةُ ضَرَاعَةٍ وَرِجَاءٍ، وَافْهَمُوهُمْ كَمَا رَأَيْنَا فِي صَلَاةِ
اسْتِسْقاءٍ مَا كَادَتْ تَنْتَهِي حَتَّى اسْتَهَلَ الْمَطَرُ يَهْمِيُّ، وَبِبَشْرٍ بِرِيعٍ نَضِيرٍ. بِمَ تَصْفُ إِيمَانَ
هُؤُلَاءِ بَعْدَ ذَلِكَ؟ لَقَدْ تَجاوزُوا مَرْحَلَةَ الإِيمَانِ النَّظَرِيِّ إِلَى مَرْحَلَةِ أَزْكَى وَأَرْقَى، إِنَّ كُلَّ مَا قَالَهُ
الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، بَعْدَ نَزْوَلِ الْغَيْثِ: ﴿أَشْهَدُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَأَنِّي
عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ﴾ . وَالشَّهَادَةُ هُنَا مَنْزَلَةُ فَوْقِ الْيَقِينِ الْمُجْرَدِ

قال لي الشاب المسكين: لقد تعلمنا أن المادة لا تفنى، ولا تستحدث؟ وهو كلام يزلزل الإيمان، لولا حرارة ما أسمع. قلت: يا بني إن الذين كتبوا هذا الكلام ذكروا نصف المعرفة بعد ما حرفوه عن موضعه. إن رب المادة هو الذي لا يفنى ولا يستحدث، أما أنا وأنت فقد صح لنا وجود بعد أن لم نكن. أنا وأنت لسنا أزليين؟ ترى من أوحدنا في بطون الأمهات؟ الخمسة أرطال من الأجهزة اللحمية التي تملأ تجويف البطن بهذه هي التي دفعت الأجنة لتخرج إلى الجو صارخة بعدما حرك الهواء الخارجي رئاتها؟ إبني أحقر الغباء وكل ما ينتج عنه من أحكام، فدعوني من مساخر هؤلاء الماديين. ربما ظن الطفل أن تحرك الصورة في المرأة يحدث من الصورة نفسها أو من سطح المرأة المصقول، وبعد قليل من رشد سوف يدرك أن هذا التحرك يجيء من الجسم الذي يثبت الصورة، لا من الصورة المتوجهة. وناس كثيرون في طفولتهم العقلية ينسبون إلى المادة ما لا تعيه ولا تستطيعه، وقد تسأله: من الذي صنع زخارف البصمات على أطراف الأصابع؟ الجلد نفسه؟ إنه منفعل لا فاعل. ولنترك عالم الجسم - على ما به من إبداع - إلى عالم أرقى، من الذي صنع الذكاء والغباء في عقولنا؟ أو من الذي صنع النزق والأناه في طباعنا؟ لتنظر حولنا إلى جندي مجهمول ^ـ قام بهذا العمل الخارج، أجد أحدا من الناس؟ أجد عنصرا من العناصر؟ إن الأغبياء يتيمون أنفسهم عن الله عمدا، ويحاولون تجاهل القدرة العليا ببلادة سمجة، وليس ذلك هو العجب، بل العجب أن من يفعل ذلك يريد أن يصف نفسه بالعلم، والتقدم، وألقاب أخرى ...

ومن قديم جد ناس كثيرون عمل الله في كونه، ونسبوا العمل إلى أقرب مظاهر له، كما ينسب الطفل تحرك الصورة في المرأة إلى المرأة. قال زين بن خالد الجهنمي: صلى بنا رسول الله صلاة الصبح بالحدبية - إثر مطر سقط ليلاً - فلما انصرف أقبل على الناس فقال: هل تدرؤن ماذا قال ربكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: قال الله: أصبح من عبادي مؤمن بي، وكافر. فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمن بي كافر بالكواكب. وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي مؤمن بالكواكب . إن الذين يطعنون الأشياء تحدث دون تقدير إلهي وهيمنة علياً - وهم في دنيانا الآن كثراً كفار حقاً. أما الذين يعرفون أن الله خالق كل شيء، وسائل كل فضل، فهم المؤمنون حقاً. وسواء نسبوا العمل إلى الله، أو نسبوه إلى خلقه مجازاً فهم مؤمنون بلا ريب، فمن قال: أنسج الصيف الفاكهة، يقصد أن الحرارة سبب الإنضاج، فهو مؤمن ولم يقل نكراً، لأنه عارف أن الله هو الذي أخرج الزرع، وتفضل به على خلقه، إنما الإثم على من خلا من الله قلبه وفكرة، ونسب الأشياء إلى أدنى سبب منها، وأبى أن يعترف بألوهيته وراء ما نلمح من أسباب، وقد كان النبي عليه الصلاة والسلام بين الحين والحين يكشف الغطاء عن الأسباب العادلة، ويبين قيمتها ليربط الناس بربهم، ويجعل ذكره بين أعينهم. والله عز وجل لطفاً منه بعباده قد يحرّمهم ما يحتاجون إليه ليسارعوا إلى ساحته طالبين، ويسألون ملحيّن، فإذا أعطاهم أندثر مشاعر الشكر في أفئتهم، وعادوا وقد ربا إيمانهم. صلاة الاستسقاء، وال حاجة، والاستخاراة شرعت لذلك. وقد رأيت الناس في مكة - إذا تأخر المطر - هرعوا إلى الصلاة،

وصاحوا يطلبون النجدة من السماء، فما هي إلا أيام حتى ينزل الغيث. ولقد رأينا على عهد رسول الله أن الإجابة تعقب السؤال!.. ما يكاد النبي عليه الصلاة والسلام يدعو حتى تستهل السماء، وتبدأ الأنهر تتكون. الغريب أن في شرق أفريقيا وغيرها وقع حفاف أهلك البلاد والعباد وما فكر أحد في صلاة استسقاء، لأن الله لا يعرف ولا يقصد!! وتلك سمات الحضارة المادية وأثارها كما نقلها الاستعمار إلى الأقطار التي نكبت

متاعب الدنيا البشر محكومون بقوانين اللذة والألم، قد يضعفون مع المتابع إلى حد الهوان وقد يشتدون مع المنافع إلى حد الطغيان؟ والمطلوب من المؤمن الكيس ألا يزيف، وألا يطغى، وأن يظل متماسكا على حاليه كلتيهما. وهو ما بقي حيا لن يستريح من اختبار، وتلك طبيعة الفترة التي نقضيها في هذه الدنيا. والآلام تكشف الضعف الإنساني، وتدفع العاقل دفعا إلى الوقوف بباب الله يطلب العافية، ويرجو رحمة رب، ومطلوب من المؤمن أن يلجأ إلى الله في كل ما ينوبه، ولو كان تافها، قال رسول الله عليه الصلاة والسلام : ليسترجع أحدكم في كل شيء حتى في شسع نعله، فإنها من المصائب ` - والشبع رباط الحذاء. والمقصود من ذلك أن يعول المسلم في شؤونه كلها على معونة الله، وألا يتصور انقضاء شيء منها دون إذنه تعالى، ولو كان لا يلقي له بالا، فإن مصالح المرء صغراها وكثراها مرهونة بالتوفيق الأعلى. فإذا عظم الخطب اشتد إلى الله فزعه، وطالت ضراعته. فعن ثوبان أن النبي عليه الصلاة والسلام كان إذا رأوه شيء قال: ` هو الله، الله ربى لا `: شريك له . وكان يعمم أصحابه عند الفزع هذه الكلمات

أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه، وشر عباده، ومن همزات الشياطين، وأن يحصرون .
وعن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: شكوت إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام أرقا
أصابني فقال: قل: اللهم غارت النجوم، وهدأت العيون، وأنت حي قيوم لا تأخذك سنة ولا
نوم. يا حي يا قيوم أهدى لي ليلي وأنم عيني . فقلتها، فأذهب الله عز وجل عني ما كنت
أحد. وظاهر أن الرسول الكريم يتأنى آية الكرسي، أعني كلماتها الأولى، فيستوقف المرء
الفقير إلى النوم، والاستغراق أمام الملك الذي يدبّر ما سكن في الليل والنهار، ولا يغفل
لحظة. وعندما يقف الإنسان في إطار ضعفه أمام ذي العزة والملوک، فإنه يعود مليء
اليدين بالخير. وقد أمرنا أن ندعوا الله بأسمائه الحسنى، والله يحب أن يمدح، ولذلك جاء في
الحديث: ألطوا - ألحوا - بياذا الجلال والإكرام . وقد ذكرنا أن النبي عليه الصلاة والسلام
أعلم الناس بالله، وأتقاهم له، وأبصرهم بمحالٍي أسمائه الحسنى في آفاق الكون والحياة،
وأسرعهم إلى ما تتطلبه من مشاعر الصبر والشكر، والتحية والحمد. ويظهر لمؤرخي
السيرة الشريفة أن التجارب التي مر بها قبلبعثة وبعدها أنضجت الكمال الإنساني في
شخصه إلى حد لا يتكرر في الدنيا، على أن أحداً من الخلق - مهما كان قدره - لا يفرض
صدقته على الله، بل الله هو الذي - إذا شاء - أحب واصطفى. وعندما يحب ويختار يسوق
الأحداث التي ترفع القدر، وتزيد الأجر، ويغلب أن تكون جسيمة فادحة تبني الراحة، والقرار
الناعم. ومن هنا بدأ النبي الخاتم حياته يتيمًا يحتاج إلى الكافل الحاني، ولكن الله آواه، وبدأ
حائراً لا يبصر المنهج، ولا يدرى من حكمة الحياة شيئاً، ولكن

الله علم وهدى، وبدأ فقيراً يكبح لحياناً، ويضرب في أرجاء الأرض ليصون وجهه وعرضه، ولكن الله أغمى. وفي صفة هذه البداية وفي تقرير ما يترتب عليها يقول الله تعالى: "ألم يجدك يتيمًا فأوى و وحدك ضالاً فهدى و وحدك عائلاً فأغمى فأما اليتيم فلا تقهراً وأما السائل فلا تنهر وأما بنعمتك ربك فحدث". والنعمة الوسطى بين هذه النعم الثلاث، الهدى بعد الضلال - كما عبر السيد وهو يخاطب عبده - احتاجت إلى سورة لتوضيحها، وتكشف حقيقتها، وهي سورة الانشراح، فإن النبي عليه الصلاة والسلام نشأ في بيئه أثقلتها الجاهلية بأنواع التخلف، ومع ما فيها من سوء فهي أذكي وأسلم من البيئات التي ملأها أهل الكتاب بالتزوير والغش. وقد عاف النبي ما ثر الجاهلية، كما رفض شرود النصارى واليهود، مما عساه يصنع؟ لا شيء. لقد اعتزل بفطرته النقيّة بعيداً، صائقاً بأحواله وأحوال الآخرين، فهو ما يستطيع أن يسدي لأحد علماً، ولا لنفسه، فمن أين له؟ والإنسان ذو الجو المرهف تشققه أزمات الضمير والفكير، وتجعل الحياة في عينه أضيق من سم الخياط، وما يعرّيه متاع الدنيا كلها لو أتيح له، كذلك كان محمد حتى فجأه الوحي. وفي ذلك يقوله الله له: "ألم نشرح لك صدرك"؟ بفيض الحقائق الأدبية التي ألهمتها؟ "و وضعنا عنك وزرك"؟ انزاح الحمل الثقيل الذي كان يبهظك وأنت مستوحش حائر منقطع؟ "الذي أنقض ظهرك"؟ لقد كنت بهذا الحمل تهرب من المجتمع، وتأسى لنفسك ولغيرك، وتألم لعجزك، وغريتك عما حولك، ثم اجتباك الله.. ومن أرفع ممن يختاره رب الأرض والسماء ليهديه ويهدي به العالمين؟ "و رفعنا لك ذكرك.

وسنة الحياة كذلك، الجد والجهد والتصرّف يتبعها الشمر: "إن مع العسر يسراً إن مع العسر يسراً". والمطلوب منك - بعد - إذا فرغت من العمل أن تستأنف العمل، لا مجال للراحة: "إذا فرغت فانصب وإلى ربك فارغب". هكذا رأينا الإيواء بعد اليتم، والهداية بعد الحيرة والتوقف، والغنى بعد العيلة. والمعاناة التي ظهرت في حياة النبي الخاتم جعلته دقيق الإحساس بالآلام الناس، فهو يحزن لها، ويتسارع إلى تجفيفها، أو تخفيتها، وكان حقه شاملاً لمختلف الآلام المادية والأدبية، فهو يود أن ينفيها كلها عن حياته، وحياة غيره. ومن الذي يقصد وجهه ويلتمس حماه عند هجوم اليساء والضراء؟ الله وحده، إنه الحرز الآمن، والمأوى الحصين، ومن ثم ذكره ودعاه بالحاج وأدب. وهو عندما يجأر بأسماء الله الحسنة يعلم الألوف المؤلفة

أن هذا هو الطريق فاسلكوه، هذا هو الأمل فانشدوه "إذا سألك عبادي عنني فإني قريب
أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لي وليرجعوا بي لعلهم يرشدون". إن محمداً ليس
كاهناً يقول للمذنبين: تعالوا إلي معتزفين أغفر لكم، تعالوا إلي مثقلين مرهقين أخفف عنكم
وارحكم.. كلا، إنه يقول: ادعوا الله معي، ادعوا الله لأنفسكم، أنا وأنتم ومن في السموات
أصفار إن لم يشاً هو أن يجعلنا شيئاً. إنه يجير ولا يجار عليه، ويحكم لا معقب لحكمه "إن
.." يمسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يمسك بخير فهو على كل شيء قادر

وتشتت في هذا المجال جملة من الأدعية التي كان يدعو بها، ويرغب إلى المؤمنين أن يتقربوا إلى الله بترديدها: `اللهم إني أسألك موجبات رحمتك، وعذائم مغفرتك، والسلامة من كل إثم، والغنيمة من كل بر، والفوز بالجنة، والنجاة من النار.` `اللهم ألهمني رشدي، وأعذني من شر نفسي` . `اللهم إني أعوذ بك من الجوع فإنه بئس الضجيع، وأعوذ بك من الخيانة فإنها بئست البطانة` . `اللهم إني أعوذ بك من البرص، والجنون، والجذام، وسيئ الأسماق` . `اللهم إني أعوذ بك من شر سمعي، ومن شر بصري، ومن شر لساني، ومن شر قلبي` . `اللهم إني أعوذ بك من فتنة النار، وعذاب النار، ومن شر الغنى والفقير` . `اللهم إني أعوذ بك من منكرات الأخلاق، والأعمال، والأهواء` . `اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل ، والبخل والهرم ، وعذاب القبر` . `اللهم آت نفسی تقوها، وزکها أنت خیر من زکاها، أنت ولیها ومولاها` . `اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها` . `اللهم إني أعوذ بك من زوال نعمتك، وتحول عافيتك، وفجأة نقمتك، وجميع سخطك` . `اللهم إني أعوذ بك من شر ما عملت، ومن شر ما لم أعمل` .

اغفر لي خطئتي وجهلي، وإسرافي في أمري، وما أنت أعلم به مني . ` اغفر لي جدي وهزلي، وخطئي وعمدي، وكل ذلك عندي . ` اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً، ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرة من عندك، وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم . ` اللهم اهدني وسددي . ` اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل والجبن والبخل والهرم. وأعوذ بك من عذاب القبر، وأعوذ بك من فتنة المحييا والممات، وضعع الدين، وغلبة الرجال . ` اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك . ` اللهم إنا نعوذ بك من جهد البلاء، ودرك الشقاء، وسوء القضاء، وشماتة الأعداء . ` اللهم اغفر لي، وارحمني، واهدني، وعافني، وارزقني . ` اللهم إني أسألك الهدى، والتقوى، والعفاف، والغنى . ` اللهم اغفر لي ذنبي كله، دقه وجله، وأوله وآخره، وعلانيته وسره . ` اللهم إني أعوذ بك من شر الخلق، وهم الرزق، وسوء الخلق . ` اللهم إني أعوذ بك من الشقاوة، والنفاق، وسوء الأخلاق . ` اللهم لك الحمد كله، ولك الملك كله، وبيدك الخير كله، علانيته وسره، ولك الحمد إنك على كل شيء قادر. اغفر لي ما مضى من ذنوبي ، واعصمني فيما بقي من عمري، وارزقني أعمالا . ` زاكية ترضى بها وتب علي

اللهم إني أعوذ بك من الفقر إلا إليك، ومن الذل إلا لك، ومن الخوف إلا منك، وأعوذ بك أن أقول زوراً، أو أغشى فجوراً، أو أكون بك مغروراً، وأعوذ بك من شماتة الأعداء، وغضال الداء، وخيبة الرجاء، وزوال النعمة، وفجاءة النومة . اللهم إني أعوذ بك من العطب، والنصب، وأعوذ بك من وعثاء السفر وسوء المنقلب . اللهم إني أعوذ بك من الزيف، والجزع، وأعوذ بك من الطمع في غير مطعم . اللهم إني أعوذ بك من الفتنة ما ظهر منها وما بطن وأعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق . اللهم إني أعوذ بك أن أظلم أو أظلم، أو ابغى أو يبغى علي، أو اطغى أو يطغى علي . اللهم اجعلني لك، ذكارا لك، شكارا لك، مطواعا لك، مخبتا إليك، أواها منيما . رب تقبل توبتي، واغسل حوبتي، وأجب دعوتي، وثبت حجتي، واهد قلبي، وسد لسانني، واسلل سخيمة صدري . اللهم زدنا ولا تنقصنا، وأكرمنا ولا تهنا، وآثرنا ولا تؤثر علينا، وأرضنا وأرض عنا . حسبنا هذا القدر من توجه محمد إلى ربه، وقبل أن نتدار ببعض ما سقنا نسأل: هل في تاريخ القارات الخمس بشر أحب الله تبارك وتعالى بأحر من هذه العواطف؟ هل في تاريخ القارات الخمس عابد ضرع إلى الله بأخلص من هذه العبارات؟ إننا نقول لمن يستغربون اتباعنا لمحمد: هاتوا لنا بشرا مثله، له بالله أزكي من هذه العلاقة، ونحن نتبعه

إننا نحن الذين نرثي لمن جهل مهداً أو عاداه، ونستغرب العمى الذي حجبهم عنه. إن أفيده الخلائق - حين تهتدي - وراء فؤاد محمد وهو ينبع بتوحيد الله وتمجيده، وجوارحها - حين تخضع - وراء كيانه حين يتابع بين ركوعه وسجوده.. تكون في أزكي أحوالها وأشرفها؟ نعم، إن الإنسانية الراسخة يمثلها هذا العلم المفرد، الذي تفاني في ذكر الله وطاعته. وإذا افترضنا أن كل ما يمتلك قلب المرء دون ربه صنم، سواء في ذلك المال والهوى وحب النفس، وحب الغير، فإن الإنسان الذي حطم الأصنام كلها، وجعل المرء لله وحده هو محمد.. الذي امتحن من بصيرته ظلال الأشياء، ولم يبق فيها إلا إجلال الله، وإعظامه. وراء ذلك التقى النقى تقف جماهير هائلة من القانتين، وقلب كل منهم يؤمن على دعائه وهو يهتف بربه: اللهم اجعلني لك، ذكاراً لك، شكاراً لك . والأدعية التي أثبتناها في هذا الفصل تشير إلى جملة أمور: أولها: أن الرسول يكره المرض، خصوصاً العصال منه، ومن من يحب أنواع الخفى والسرطان؟ إن إيثار العافية فطرة الله في الأنفس، وما يحب الأوجاع إلا مختل المزاج. ومن ثم رأينا النبي عليه الصلاة والسلام يدعو رب طالباً سلامة الحواس والأعضاء، مستعيناً به من السقام، والعجز، والهرم. والمعروف من سيرته عليه الصلاة والسلام أنه كان متين البنية يهزم المصارعين، ويسيير المسافات الشاسعة دون إعياء، ويحمل أعباء الجهاد دون نكوص. والمرء يدهش لأناس يجعلون النحافة والشحوب أمارات التقوى، وقد ظهر هذا الخلل بين الهند أولاً، ثم نقله النصارى إلى عناصر الرهبانية، ثم نقله جهله الصوفية إلى الإسلام.

ونشا عن ذلك ان البعض اعتبر الفحولة قدحا في الانسانية او نقصا في السمو الروحي.. كان المخنثين واصبهاتهم يصعدون الى مستوى الملائكة بالضعف الجنسي. الواقع ان محمدا كان مثالا عاليا للبشر، صادقا مع منطق الطبيعة، عندما سال الله بعد عن الآفات والعلل. فإذا عرا المرء شيء بعد ذلك من المتاعب صبر عليه وسلم الله فيما أراد، وقال كما قال خاتم الأنبياء: إن الله ما اخذ، والله ما أعطى، أو قال كما علمنا الله : إنا لله وإنا إليه راجعون . الأمر الثاني: أعلن النبي كرهه للفقر والدين، وشتم الأزمات التي تعكر الصفو وتذلل الناس، وعندني انه من السخيف تحبيب العيلة إلى الناس باسم الله. والفرق بارز بين الكفاية الواجبة، والزيادة المغربية بالطغيان والعبث وقد يتفاوت حد الكفاية بين شخص وآخر؟ والمهم أن صاحب الرسالة كان يسأل الله- كما جاء في بعض الآثار- عيشا قارا، ورزقا دارا، وعملا بارا، وكان كثير الدعاء: ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار . فإذا عرض حصار، أو وجب كفاح، تحمل القلة بجلد، ولم يفقد البشاشة والاتزان. وإذا أقبل الكثير صرفة إلى الآخرين بسماحة ورغبة، وهناك يقين بأن شيئا من أعراض الدنيا لم يملكه، بل أمره كما جاء في دعائه: اللهم اجعل حبك أحب إلي من نفسي، وأهلي، ومالي، ولدي، ومن الماء البارد على الظماء . الأمر الثالث: هناك ناس يكرهون من فوقهم ويحرقون من دونهم وهذا الصنف السيئ يملأ جنبات المجتمع، وقد أعلن عليه الإسلام حربا صريحة فقال النبي عليه الصلاة والسلام: ليس منا من لم يوقر كبرينا

ويرحم صغيرنا، ويعرف لعالمنا حقه . والنبي الكريم يلقى الناس بشعور واحد، إنه لا يريد أن يكون جبارا في الأرض أو ملكا على العباد، انه لا يريد علوا في الأرض ولا فسادا، وفي الوقت نفسه يحب أن ينجيه الله من استطالة السفهاء، وجور المعتدين. من أجل ذلك كثر في دعائه الاستعاذه من الفتنه والبغى والغدر والجهل، وكل ما يخدش كرامة الإنسان الكريم على نفسه. ومع ذلك قبل أن يهون في ذات الله ويشتتم ويروع. وكل ما حرص عليه ألا يكون غاضبا منه: ` ... إن لم يك بك علي غصب فلا أبالي، ولكن عافيتك أوسع لي . وهنا نقرر حقا للنبي عليه الصلاة والسلام نبهنا إليه، ورغب إلينا فيه هو أن نصلي عليه. وما معنى الصلاة عليه؟ إنها استرحام مقرن بالثناء. أي أن المؤمنين يسألون الله لنبيهم محمد علو شأن، وزيادة فضل كفاء ما أسدى لهم من جميل، وقام به من جهاد. وقد أمرنا الله أن نصلي على نبيه، وأخبرنا أنه- تبارك اسمه- يصلى هو ولملائكته على هذا النبي الكريم كما جاء في القرآن إن الله ولملائكته يصلون على المؤمنين بما معنى هذه الصلوات؟ ظاهر من الصلاة على المؤمنين أنها توفيق لهم وبركة في سعيهم، وإنها عون من الله لإخراجهم من الحيرة والشروع والمضايق إلى السعة والضياء والاستقامة، وهي نابعة من رحمة الله وفضله، وذلك ما تشير إليه الآية: "هو الذي يصلى عليكم ولملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور وكان بالمؤمنين رحيمـا تحييـهم يوم يلقـونـه سلامـ وأعـدـ لهمـ أجـراـ كـريـماـ". ويزداد هذا العطاء للمصابين من أهل الإيمان، الذين يختبرون في أنفسهم وأموالهم، فلا يهتز يقينـهمـ، ولا تنتهي بالـلهـ صـلتـهمـ، بل يـسلـمونـ

ويسترجعون: "أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون". فإذا كان المؤمنون الصابرون يلقون من الله هذه الحفاوة، فكيف بالإنسان الذي حمل الجهد الأكبر في غرس الإيمان، ووقف دونه يذود شياطين الإنس والجن، وربط حياته بهذه الغاية الشريفة، فلا هم له إلا هداية الناس، ولا فرحة له إلا أن يعبد الله في الأرض؟ إن الملا الأعلى يرقبون كفاحه بإعجاب، ويدهشون كيف- وهو الفرد الضعيف المتجرد- هزم المبطلين، ومحا جاهليتهم، وأقام دولة التوحيد وأمته الكبرى. ذاك معنى قوله سبحانه وتعالى : "إن الله ولائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما" إن صلاتنا عليه تصدق برسالته وانتصار لها، وولاء لصاحبها، وتحية إعزاز وحب؟ إنها الرباط الجامع بين القائد وجنته، أو الإمام وأتباعه، على طاعة الله، والتزام نهجه، والبقاء عليه إلى يوم اللقاء الأخير. ذلك ... وكل شيء في الكون يشارك في التسبيح لته والصلوة له: "ألم تر أن الله يسبح له من في السماوات والأرض والطير صفات كل قد علم صلاته وتسبيحه والله علیم بما يفعلون". ونحن نؤثر في الصلاة على رسول الله ما ورد من صيغ سهلة واضحة، ونكره الصيغ المتكلفة أو المبهمة التي ألفت لها كتب، وانعقدت مجالس واخترعت للنبي العظيم أسماء ما أنزل الله بها من سلطان. وليس المهم تردید عبارات بلية وإنما المهم عرفان الجميل للنبي الصالح المصلح، وتقدير الجهاد الذي محا به ظلمات الجاهلية، وكشف

أشباحها، وأسس دولة للحق أعزت من يستحق العزة، وأهانت من يستحق المهوان.. هذا هو المعنى الحقيقي للصلة على النبي. وهو ما رصدت له الأجر المروية في هذه القضية، لا ما يهدف به أدعية الحب الذين لا يثبتون في الدفاع عن سنة، أو حماية شعيرة. نعم في المجاهدين عن الدين والمقدرين لرسوله يساق الحديث: `من صلى على صلاة صلى الله عليه بها عشراء` وحديث عبد الله بن مسعود أن رسول الله قال: `أولى الناس بي يوم القيمة أكثرهم علي صلاة` وعن أبي هريرة: `لا تجعلوا قبري عيدها، وصلوا علي فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم` . ولعالم الأرواح سنن فوق ما ندرك في عالم المادة تجعل هذا البلوغ ميسورا، ولا نحب أن نوغل في هذه الأمور. وفيما قرأت، ونقرأ، من أدعية النبي الكريم نرى طول نفسه في الاستغفار، كما نرى أن القرآن الكريم نسب إليه ما نسبة هو إلى نفسه من ذنوب غفرت له بفضل الله فما معنى ذلك؟ وماذا صنع مما يؤخذ به؟. ونحن نجيب على ذلك بهدوء، فإن صفحة محمد عليه الصلاة والسلام هي أشرف صفحة بين أهل الأرض والسماء، وما نعرف أحدا تبعته الأبصار في صغره وكبره، ويقطنه ومناته، وسره وعلمه، كما تبعت محمدا وأحصت عليه كل شيء. وماذا قال أعداؤه عنه مما يخدش البطولة أو ينقص المروءة؟ لا شيء. ما نقم منه الناقمون إلا أن الضربات التي كالها للباطل ظل يتربّح منها إلى آخر الدهر، وأن منهجه في توحيد الله، وتحشيد الناس على عبادته، لم يقترب منه أحد من الأولين والآخرين.

ولم ينسب إليه - ولو بطريق الكذب- ما نسبه أهل الكتاب إلى أنبياء الله من سكر، وزنى، وقتل، وختل...! وأنبياء الله كلهم براء من هذا الاختلاق، وإنما هم الشامخ محمد بن عبد الله أسمى قدرًا، وأعز مكاناً. إذن فمم الاستغفار؟ إن التفاوت بين النفوس كبير جداً، ذلك أن ما تملك من طاقات مادية وأدبية مختلفاً اختلافاً واسعاً، وموقفها مما وهب لها هو الذي يحدد نجاحها ورسوبها، أو تقدمها وتأخرها، ولا عبرة بظاهرة العمل. إن الأربب يقدر في لحظات على اجتياز عدة أذرع على حين تستغرق السلفاة في ذلك أبداً، ولا مكان لللومها على بطئها إذا كانت قد بذلت وسعها. والبشر ليسوا سواء في همهمهم ونظاراتهم وإنما هم مسؤولون أمام الله على قدر ما وهب لهم من تلك الأنسبة، ومعنى ذلك أنه قد يقبل من أحدهم ما يرفض من الآخر، ولعل ذلك معنى قول أبي الطيب: ويختلف الرزقان، والفعل واحد إلى أن يرى إحسان هذا لذا ذنبنا نعم، قد تكون الحسنة من هذا سيئة من ذاك، وبعد ما لدى كليهما من مواهب عقلية وحسية، ولذلك قالوا: "حسنات الأبرار سيناث المقربين". والواقع أن ما يقبل من شخص عادي قد يعد هنة من رجل عبقرى، ومن هنا يمكن القول بأن ما ينسب - حيناً - إلى الأنبياء من ذنوب إنما هو على مقدار درجاتهم، وأن هذه الذنوب ليست ما ي الواقع العامة من كبار أو يتلوثون به من أحوال. وقد كتب الأستاذ العقاد مقالاً عن المقاييس الأدبية، جاء فيه أنه ينبغي في بعض الأحوال النظر إلى من قال، لا إلى ما قيل.. فإن أبو العلاء المعربي عندما ينشد

تعب كلها الحياة فما أعجب إلا من راغب في ازدياد فإنه لا يعني ما يعنيه الحمالون في محطات السكة الحديد، أو ما يعنيه الفلاحون وهم ينقلون الأتربة والبذور. وهذا كلام حسن، ومن السخيف تصور المرسلين يقترون خطايا الدهماء، إن ما يستغفرون له من أخطاء شيء آخر يتفق مع معادنهم المنتقاة. والنسبة أمر لا بد منه، فركاب الطائرات قد ينظرون من مكانهم العالي إلى ركاب القطارات، ولكن ركاب السفن الفضائية يضحكون من ركاب الطائرات.. ويأخذ الأمر صفة أخرى عند سكان الكواكب. على أن هناك منطقاً آخر يتمم هذه النظرة التي شرحناها فيما ينسب إلى الأنبياء من ذنوب. إن الإنسان الواحد- فيما يمر به من أطوار الكمال- يمكن أن يكون عدة أنس، إنه يرقى من سماء إلى سماء، وحاله في الأولى أدنى من حاله في الأخرى، وهو إذ ينظر إلى دنوها- بالنسبة إلى ما صار إليه- يستغفر ربه،

ويستصغر ما قدم له، ويعده فعلاً رديئاً ما كان ينبغي منه، وكلما مضى في معراج الارتقاء، وتكتشف له من آيات الجمال الأعلى ازداد ولها بالتمجيد والتحميد، وازداد كذلك لهجا بالتوبة والاستغفار. ونحن على صعيدنا القريب عندما نرمي محمداً عليه الصلاة والسلام في عبادته وقيادته نرى أنه في فلكه العالي يرتفع من أفق إلى أفق، فآيات القرآن تزيد يوماً بعد يوم، ومراحل الجهاد تطرد مرحلة بعد مرحلة، وأعباء الهدایة العامة تشتد وطأتها، وتنداح دائرتها. إن الذي صاح على الصفا يدعو عشيرته الأقربين أخذ يكاتب ملوك العصر وجبارته الأرض.. والذي خاصم نفراً يعدون على الأصابع أول أمره شرع يعد الجيش لمقارعة الضلال وكسر كبرائه.. ولمن هذه المعاناة الموصولة في جهاد النفس وجهاد الناس؟.. لله وحده.

لقد قام الليل إلا قليلا من أول أيام البعثة، ومضى على الدرب الطويل يواصل الصلاة والصيام والعطاء، ويقاوم الوثنية والخرافات وعوج الجهال والمتعالمين. هل استراح يوما؟ كلا! كلما شعر أن الله اختاره لهذه الرسالة أفنى قواه في البلاغ والجهاد، وحطم العوائق ومضى في إعلاء اسم الله، فلا عجب إذ تنزل عليه قبيل الفتح الأكبر: "إنا فتحنا لك فتحا مبينا ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما". إن الغفران هنا ليس لذنوب واقعة أو متوقعة، وإنما هو تبشير المجاهد في سبيل ربه بأنه نجح فيما كلف به، وإن الشعور بالتقدير أو العجز عن الوفاء بحقوق الله كما يحبها القائد الضخم أمر متجاوز عنه. لا ذنوب هنا مما يألف العوام، إنما هو إحساس النبي الأنبياء بأنه - وإن أذاب نفسه في مرضاه ربه - فهو مقصر في حقه، متخلف عن أداء واحباته العظام؛ من أجل ذلك كرمه الله، وساق له البشري. وعندما يقول الله لعبد: غفرت لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر. فليس معنى هذا إسقاط التكاليف، وإعطاء المرء حرية أن يفعل أو يترك. هذا فهم بادي السوء والغفلة؛ وإنما المراد أن العبد بلغ مستوى من الرفعة لن ينحدر عنه، وأن مستقبله لن يكون إلا امتدادا لحاضر طيب موصول بالله مراقب له. وقد وعد الرسول بهذه المغفرة الشاملة، كما أن الرسول بشر بهذه المكانة أهل بدر، وعثمان بن عفان لما أعطى مالا ضخما في غزوة العسرة. وفي الصحيح أن الله بشر بهذه المنزلة الرجل التائب الذي يستغفر الله من قلبه في أعقاب ذنبه قائلا: علم عبدي أن له ربا يغفر الذنب ويؤاخذ به.. افعل ما شئت فقد .. غفرت لك

إن المفهوم من هذا أن الله يكتب للعبد حقه أو صفتة من الحال الثابتة التي بلغها في حياته،... ويسجلها له قبل وفاته، لأنه يعلم منه أنه لن يتعرض بعدها لنكسة

هل الدعاء من الأسباب العادية؟ نستطيع أن نقول: نعم إذا تصورنا القضية ليست أكثر من استعانة عاجز ب قادر. إن الولد عندما يقول لأبيه: هات لي كذا مما يؤمل ويرحب، فهو يستعمل السبب المتاح له، أي الوالد المحب، وإن كان بوسائله الخاصة لا يقدر. والأنبياء عندما لجأوا إلى الله يدفعون به أذى الكافرين كان الدعاء سببهم العادي: "كذبت قبليهم قوم نوح فكذبوا عبادنا وقالوا مجنون واذجر فدعا ربه أني مغلوب فانتصر ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر وفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر". وليس كلامنا الآن في هذا المنحى، وإنما نقصد ما روي في الصاحح من أذكار ورقى يرددوها المؤمنون في أوقات معينة، أو في أوجاع وأحوال يضيقون بها، ويستعينون بالله لدفعها. ثبت في الصاحح أن رسول الله عليه الصلاة والسلام كان إذا أخذ مضجعه - استعد للنوم - نفث في يديه، وقرأ المعوذتين ومسح بهما جسده. وفي رواية كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه، ثم نفث فيهما، وقرأ "...فيهما: "قل هو الله أحد.." و "قل أعوذ برب الفلق

و "قل أعوذ برب الناس.." ثم مسح بهما ما استطاع من جسده، يبدأ بهما على رأسه، ووجهه، وما أقبل من جسده، يفعل ذلك ثلاث مرات. قال رجال اللغة: النفث نفح لطيف بلا ريق. إن هذه السور الثلاث تحتوي على توحيد الله، وعلى تمام تنزيهه، ثم تدفع بالمرء في أحضان العناية العليا متحصنا من جميع الشرور المادية والمعنوية التي تزعجه. وهناك رقى كثيرة سنشير إلى بعضها؛ يستشفى بها المسلم من الأوجاع التي تنتابه، واتصالها بعالم الغيبيات واضح، إذ لا يدرى العقل سر النفث ولا سر العدد الوارد. وأجدني هنا مسوقا إلى ذكر حقائق طبية مقررة هي الأخرى على حافة عالم الغيب متحيرين؛ إن الجراثيم التي تحمل العلل قد تهاجم بعض الأجسام بضراوة، على حين تفقد شراستها حين تتصل بأجسام أخرى، فما تمسها بأذى يذكر! وأحياناً تشتد وطأة الجراثيم الهاجمة، ومع ذلك تستقبلها من الجسم مناعة غريبة، وربما حمل الإنسان أسباب المرض دون أن يعتل به، أو يتآلم منه. ما سر ذلك؟ من الذي أفقد الجراثيم قدرتها على الإصابة ابتداء وانتهاء؟ نحن المؤمنين نقول: الله. وسائل الشاكين: من غيره؟ إن عالم الحس بالنسبة إلى عالم الغيب

ضئيل محدود، والتحكم في أسباب المرض والعافية أقله في أيدينا، وأكثره بعيد عن متناولنا. والتداوي حق، وقد وصفت السنة عقاقير وأغذية وأشربة شتى للنجاة من الأمراض، ولكن يبقى قبل ذلك كله، وبعد ذلك كله، هذا السبب الخفي الذي يجعل الجراثيم تستأنس حيناً، وتفترس حيناً آخر، الذي يجعل العدو تنتقل من الهباء، ولا تنتقل مع طول المخالطة. والالتصاد.

من أجل ذلك يبقى دعاء الرب الأعلى، واهب الأسباب قدرتها على العمل إذا شاء، وتاركها صبراً لا أثر لها إذا شاء. وعلى ضوء هذا البيان نفهم المرويات التي ثبّتها هنا واثقين من صدق نتائجها. عن عثمان بن أبي العاص أنه شكا إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام وجعاً يجده في جسده، فقال له رسول الله عليه الصلاة والسلام : `ضع يدك على الذي تألم من جسدي، وقل: باسم الله - ثلاثاً - وقل - سبع مرات - أَعُوذ بِعَزَّةِ اللهِ وَقُدْرَتِهِ مِنْ شَرِّ مَا أَجَدَ وَأَحَذَرَ` . وعن أنس رضي الله عنه أنه قال لثابت رحمه الله: ألا أرقيك برقية رسول الله عليه الصلاة والسلام؟ قال: بلـى. قال: اللهم رب الناس، مذهب البأس، اشف أنت الشافي، لا شافي إلا أنت، شفاء لا يغادر سقماً . وهذه قصة طريفة رواها البخاري ونحوه أن ثبّتها وتدبرها. فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: "انطلق نفر من أصحاب رسول الله عليه الصلاة والسلام في سفرة سافروها، حتى نزلوا على حيٍّ من أحياط العرب فاستضافوهـم فأبوا أن يضيـفوهـمـ، فلـدـغـ سـيـدـ ذـلـكـ الحـيـ، فـسـعـواـ لـهـ بـكـلـ شـيـءـ لـاـ يـنـفـعـهـ شيءـ. فـقـالـ بـعـضـهـمـ: لـوـ أـتـيـتـ هـؤـلـاءـ الرـهـطـ الـذـيـنـ نـزـلـوـ لـعـلـهـمـ أـنـ يـكـونـ عـنـهـمـ بـعـضـ شـيـءـ. فـأـنـوـهـمـ، فـقـالـوـاـ: يـاـ أـيـهـاـ الرـهـطـ، إـنـ سـيـدـنـاـ لـدـغـ، وـسـعـيـنـاـ لـهـ بـكـلـ شـيـءـ لـاـ يـنـفـعـهـ شـيـءـ. فـهـلـ عـنـدـ أـحـدـ مـنـكـمـ شـيـءـ؟ـ. قـالـ بـعـضـهـمـ: إـنـيـ وـالـلـهـ لـأـرـقـيـ، وـلـكـنـ وـالـلـهـ لـقـدـ اـسـتـضـفـنـاـكـمـ فـلـمـ تـضـيـفـوـهـمـ فـمـاـ أـنـ بـرـاقـ لـكـمـ حـتـىـ تـجـعـلـوـ لـنـاـ جـعـلـاـ. فـصـالـحـوـهـمـ عـلـىـ قـطـيـعـ مـنـ الغـنـمـ، فـانـطـلـقـ يـتـفـلـ عـلـيـهـ وـيـقـرـأـ: "الـحـمـدـ لـلـهـ رـبـ الـعـالـمـيـنـ...ـ"ـ.ـ يـعـنـيـ يـنـفـثـ بـهـ عـلـىـ اللـدـيـغــ.ـ فـكـأـنـمـاـ نـشـطـ مـنـ عـقـالـ، فـانـطـلـقـ يـمـشـيـ وـمـاـ بـهـ قـلـبـةـ، فـأـوـفـوـهـمـ جـعـلـهـمـ الـذـيـ صـالـحـوـهـمـ عـلـيـهـ

وقال بعضهم: اقسموا، فقال الذي رقى: لا تفعلوا حتى أتني النبي عليه الصلاة والسلام ، فنذكر له الذي كان، فلننظر الذي يأمرنا. فقدموا على النبي عليه الصلاة والسلام ، فذكروا له، فقال للصحابي الذي رقى المريض بأم الكتاب: `وما يدريك أنها رقية ؟ ثم قال: `قد أصبتم، اقسموا واضربوا لي معكم سهما . وضحك النبي لما كان". وفي رواية مشابهة قال النبي للراقي: `كل فلعمري لمن أكل برقية باطل لقد أكلت برقية حق . لقد استوقفتني هذه القصة من وجوه عديدة. فإن فاتحة الكتاب سورة عظيمة القدر بما حوت من تمجيد الله ودعاء، وكان ظني أنها تنفع قارئها وحده، أما أن تنفع المقرؤ له فذاك ما أثبتته القصة هنا. والقصة تحكي أن هؤلاء النفر من صحابة الرسول نزلوا بقوم لثام، رفضوا أن يقبلوهم ضيوفا، وهذه خسنة منكورة، ترى هل فعلوا ذلك كرها للإسلام، والذين دخلوا فيه؟ إبني أرجح السبب الأخير. وكان من قدر الله أن أفعى أو عقراً لدغت كبير القوم وتركته لا قرار له ولا يجدي معه شيء، مما اضطر أهله أن يلجأوا للصحابة طالبين نجدة! . والعجيب أن الذي داوي المريض بالفاتحة ينفت بها على المصاب هو الذي توقف في الانتفاع من المكافأة التي اشترطها، وشك في جواز الأكل منها، وهو تصرف يدل على أن الراقي كان يجمع بين صدق الإيمان وشدة الورع. وهنا موطن العبرة: فليس كل قارئ يشفى، ولا قراءة تداوى، ولكن لله عبادا إذا أرادوا أراد، وإذا استنزلوا الفضل نزل. وقد فرح الرسول عليه الصلاة والسلام بالقصة كلها، وأحب إرضاء الراقي، فشاركهم في الطعام من المكافأة المبدولة.

جاء في الصحيح أنه كان إذا اشتكتى يقرأ على نفسه بالمعوذات وينفث، قيل للزهري - أحد رواة الحديث -: كيف ينفث؟ قال: "ينفث على يديه، ثم يمسح بهما وجهه". لقد ظل كذلك طول عمره، ففي رواية أخرى: أن النبي كان ينفث على نفسه في المرض الذي توفي فيه بالمعوذات، قالت عائشة: "فلما تفل كنت أنفث عليه بهن، وأمسح بيد نفسه لبركتها" تعنى - رضي الله عنها - أنها تمسح جسده بيده هو، التماس بركتها. ذاك طبيبه الخاص في دنيا الناس! إذا كان للرؤساء أطباء خاصون بهم. وكذلك كان يغالب الأقسام، حتى استراح مع الرفيق الأعلى. إن تعبيRNA هنا بالجانب الغيبي قد يصح بالنسبة إلى جمهرة الناس، فإن ظلال الأشياء لا تغادر بصائرنا، ورغالبنا الخاصة قلما تنفك عنا، مع ما يخالط ذلك كله من يقين وإخلاص؛ لكن الأمر بالنسبة إلى الأنبياء غير ما نتصور، فهم في شهود غالب يجعل إحساسهم برب الأشياء أسبق من حسهم بالأشياء نفسها. ونبي الأنبياء عليه الصلة والسلام كانت روحانيته عارمة، والإشراق الإلهي على قلبه لا يلحقه أ Fowler، وكان جهده أن يرفع مستوى من حوله، وأن يغلب ماديتهم بصفاته وسنائه. وذلك يجعلنا نلقي نظرة عجل على أركان الإسلام لنرى كيف كانت معارج ارتقاء، ومصادر تذكر دائم لله، ولنرى كيف انفرد! هو بأدائها على نحو لا يدانى ولا يرام.

الأركان العامة كان النبي عليه الصلاة والسلام إذا دخل الصلاة قال ﴿الله أكبر كبيراً والحمد لله كثيراً وسبحان الله بكرة وأصيلاً، وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً مسلماً وما أنا من المشركين. إن صلاتي ونسكي ومحامي ومماتي لله رب العالمين. لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين﴾ . اللهم أنت الملك لا إله إلا أنت، أنت ربِّي وأنا عبدك. ظلمت نفسي، واعترفت بذنبي، فاغفر لي ذنبي جمِيعاً، لا يغفر الذنوب إلا أنت. واهدني لأحسن الأخلاق لا يهدى لأحسنها إلا أنت، واصرف عنِّي سينئها لا يصرف سينئها إلا أنت . لبيك وسعديك، والخير كلُّه في يديك، والشر ليس إليك، أنا بك وإليك، تباركَتْ وتعالَيتْ، أستغفرك وأتوب إليك . ومعنى الشر ليس إليك: أنه لا يبدأ به عباد، وإنما يجلبه العباد على أنفسهم بسوء عملهم: "وما أصابكم من مصيبة فيما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير". وربما قال عليه الصلاة والسلام في مفتتح صلاته: اللهم باعد بيني وبين خطايدي كما باعدت بين المشرق والمغارِب. اللهم نفني من خطايدي كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس، اللهم اغسلني من خطايدي بالماء والثلج والبرد .

وربما قال: `سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جدك، ولا إله غيرك .` وربما قال في رکوعه إذا رکع: `اللهم لك رکعت، وبك آمنت، ولك أسلمت، خشوك لك سمعي، وبصري، ومخي، وعظمي، وعصبي .` وربما قال بعد الرفع من الرکوع: `ربنا لك الحمد، حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، ملء السموات، وملء الأرض، وملء ما بينهما، وملء ما شئت من شيء بعد. أهل الثناء والمجد، أحق ما قال العبد . وكلنا لك عبد . : لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد . أي لا ينفع أحداً ما قسمت له من دنيا عريضة، إنما ينفعه ما يلقاك به من تقوى وأدب. وربما قال في سجوده: `سبحان ذي الجبروت والملائكة والكربلاء، والعظمة .` أو قال: `اللهم أعود برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وأعود بك منك، سبحانك! لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك .` إنني عندما أتلن هذه العبارات المضيئةأشعر كأن الأنبياء كلهم، والملاة الأعلى معهم، يقفون وراء محمد صفوافاً، وهو يدعوا بما أفضى الله على قلبه ولسانه، وهم يؤمنون ويؤكدون!. وقد أسأل: هل هناك عنصر من عناصر العبودية، أو معلم من معالم الرغبة والرهبة فات محمد، وهو ينادي ربه؟. هل أدى أحد من الملائكة المقربين، أو الرسل المكرمين تحية لرب العالمين أذكي من هذه التحية، أو مدحاً أنسن من هذا المدح، أو اعتذاراً على تقدير أرق من هذا الاعتذار. والتقصير هنا يرجع إلى واحد من أمرين: أن طاقة البشر محدودة والواجب كبير، أو أن عظمة الله فوق ما يعي الواقعون، فاللغاظ تفني، وحق الله أكبر مما يقولون

علي أنه في ميدان التعبد لله، بحسن المعرفة وإسداء الشكر، نرى إنساناً فذا، سبق سبقاً بعيداً، تحبو البشرية وراءه، وهي مبهورة الأنفاس، وفي مسامعها أصوات تسبيح وتحميد تتجدد ولا تتبدل. من هذا العابد المستغرق الأوهام المنيب؟ إنه محمد بن عبد الله. ونهيط من هذا الأفق لنسمع فحيح بعض الأفاكين يقول: ليس محمد نبياً! ومن قبل ذلك استمعنا إلى سخفهم وهم يقولون: لله ولد، وهو معه الله. ويحكم!! إنه لا إله إلا الله، وإن محمداً رسول الله. إن الصلاة هي الركن الثاني في الإسلام، ولا مجال هنا لشرح أقوالها وأفعالها، وما سقناه من أدعية وأذكار ليس من قبيل الواجب، فالصلاحة تتم بقراءات وأذكار دون ذلك، وإنما أردنا أن نشير إلى فن الذكر عند كبير العبادين. والصلاحة هي العبادة الأولى في كل دين، وقد كانت الشغل الشاغل للنبي عليه الصلاة والسلام، وقد جعلها شارة التقوى، ومظهر الخضوع والتودد، وشعار الولاء المطلق لله رب العالمين. ولا صلاة مع فساد المعرفة، أو رفض الانقياد لله، فتصور الألوهية شركة كفر، والتمرد على شرائع الله كفر. وتوجد معابد لشتى الأديان، بيد أن الإسلام جعل العبادة ارتباطاً بالله واحد، واستمداداً من الله واحد، واحتكماماً إلى الله واحد، وعوده - في النهاية - إلى هذا الإله الواحد. والنبي العربي محمد أفضل من عرف الخلق بهذا الإله الواحد، وحببهم فيه، وأشعرهم بأن ربهم أرحم بهم من الوالد والوالدة، وأعطف عليهم من كل صديق.

وقد بینا في مواضع أخرى أن منهاج الإسلام في التربية يجمع بين صفات الجلال وصفات الجمال، وما يستغنى البشر عن هذا الجمع، فهناك فراعنة تغريهم السلطة بالبغى، وهناك فقراء يعوزهم الدعم، أو مخطئون يلتمسون الهدى والمتاب. في هؤلاء وأولئك تقرأ قوله تعالى : "إِنْ بَطَشْ رِبَّكَ لِشَدِيدٍ إِنَّهُ هُوَ بِيَدِيهِ وَيَعِدُ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدِ".
وما يحبب في الله وما يؤسس مشاعر الحب في الأئمة فيفضل غامر في رسالة محمد عليه الصلاة والسلام، لا نعرف له نظيرا في أي تراث. إذا اعترضتك مشكلة، ولم تدرك كيف تتصرف بإزائها، فالجأ إلى ربك تستفتنه، وسله أن يوجهك إلى الأفضل، إنه منك قريب فلماذا تركه؟.
عن جابر بن عبد الله: كان رسول الله يعلمنا الاستخاراة في الأمور كلها كما يعلمنا السورة من القرآن، يقول: `إِذَا هُمْ أَحْدَكُمْ بِالْأَمْرِ فَلْيَرْكِعْ رَكْعَتَيْنِ مِنْ غَيْرِ الْفَرِيضَةِ ثُمَّ لِيَقُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ، وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدرَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ الْعَظِيمِ، فَإِنَّكَ تَقْدِرُ وَلَا أَقْدِرُ، وَتَعْلَمُ وَلَا أَعْلَمُ وَأَنْتَ عَلَامُ الْغَيْبِ. اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْأَمْرُ خَيْرٌ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي، وَعَاقِبَةُ أَمْرِي - أَوْ قَالَ: عَاجِلٌ أَمْرِي وَآجِلُهُ - فَاقْدِرْهُ لِي، وَيُسْرِهُ لِي، ثُمَّ بَارِكْ لِي فِيهِ. وَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْأَمْرُ شَرٌّ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةُ أَمْرِي - أَوْ قَالَ عَاجِلٌ أَمْرِي وَآجِلُهُ - فَاصْرِفْهُ عَنِّي وَاصْرِفْنِي عَنْهُ، وَاقْدِرْ لِي الْخَيْرَ حِيثُ كَانَ، ثُمَّ رَضِيَّ بِهِ ` وَيُسَمِّي حَاجَتَهُ.
استغربت من بعض أعداء محمد، وهم يقولون متهمين: إن رب محمد جبار متكبر! . قلت:
ليكن! هل يكسر جبارة الأرض إلا جبار السماء، وهل يمحو كربلاءهم إلا الكبير المتعال؟

إن إنقاذ الدنيا من أولئك المدفرين رحمة فدأة. ومع ذلك فإن مؤذب الطغاة يقول لطمنكسرين: أنا معكم جابر، ويقول للمستهدين: أنا لكم مرشد، ويقول لطلاب خيره: اسألوا الله من فضله إن الله كان بكل شيء عليما. إذا كانت لك حاجة فتتعاذ بها إلى ربك، إنه لن يتبع في قضائها: "إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون". عن عبد الله بن أبي أوفى، قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: من كانت له حاجة إلى الله تعالى ، أو إلى أحد من بني آدم فليتوضأ ، وليحسن الوضوء، ثم ليصل ركتين، ثم ليثنى على الله عز وجل، ول يصل على النبي - صلى الله عليه وسلم - ، ثم ليقل: لا إله إلا الله الحليم الكريم. سبحان الله رب العرش العظيم. الحمد لله رب العالمين. أسألك موجبات رحمتك، وعزمات مغفرتك، والعصمة من كل ذنب، والغنيةمة من كل بر، والسلامة من كل إثم، لا تدع لي ذنباً إلا غفرته، ولا هما إلا فرجته، ولا حاجة هي لك. رضا إلا قضيتها يا أرحم الراحمين . وتنقضي الدنيا بأفراحها وأحزانها، وتنتهي الأعمار على طولها وقصرها، ويعود الناس إلى ربهم بعد ما أمضوا فترة الامتحان على ظهر الأرض "كما بدأكم تعودون فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلال". أصبحت الدنيا ذكريات..وها هم أولاء بنو آدم يضعون أقدامهم على عتبات الآخرة. ويموت مسلم في المدينة المنورة، ويقف النبي الكريم مصلياً على جنازته، ويقدمه إلى ربه قائلاً: اللهم اغفر له وارحمه، واعف عنه، وأكرم نزله، ووسع مدخله، واغسله بالماء والثلج والبرد، ونقه من

الخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس، وأبدله دارا خيرا من داره، وأهلا خيرا من أهله، وزوجا خيرا من زوجه، وأدخله الجنة وأعذه من عذاب القبر، ومن عذاب النار . قال راوي الحديث: "لقد تمنيت أن أكون ذلك الميت الذي ظفر بهذه الدعوات المباركات". واختار الشافعي من أدعية الرسول الكريم هذا الدعاء: اللهم هذا عبده وابن عبده، خرج من روح الدنيا وسعتها ومحبوبيها وأحبائه فيها إلى ظلمة القبر، وما هو لاقيه. كان يشهد أن لا إله إلا أنت، وأن محمدا عبده ورسولك وأنت أعلم به . اللهم إنه نزل بك وأنت خير منزول به، وأصبح فقيرا إلى رحمتك وأنت غني عن عذابه، وقد جئناك راغبين إليك، شفعاء له. اللهم إن كان محسنا فزد في إحسانه، وإن كان مسيئا فتجاوز عنه، وأنته برحمتك رضاك، وقه فتنة القبر وعذابه، وافسح له في قبره، وحافي الأرض عن جنبيه، وتقيما برحمتك الأمان من عذابك، حتى تبعته إلى جنتك يا أرحم الراحمين . الصلاة على المؤمنين كتاب موقوت، ترتبط بحركة الشمس الظاهرة، قبل الشروق بنحو ساعة ونصف، ثم بعد ما تتوسط كبد السماء، ثم بعد ما تميل وتتضاعف الظلال، ثم بعد ما تغرب، ثم بعد ما يختفي الشفق الأحمر. وكما يرعى المسلمون الشمس لضبط عبادتهم اليومية يرعون القمر لضبط فرائض الصيام والحج. إن الزمن في حياتهم مطية إلى الآخرة، وقد لفت النبي - صلى الله عليه وسلم - أنظارهم إلى الشمس في سمائها الصافية، وإلى القمر وهو بدر تم، وأشعرهم أنهم سوف يرون ربهم . في الدار الآخرة بهذا الوضوح .

أفما ينبغي الاستعداد لهذا اللقاء بأعمال تنصر الوجه وتجمل العقبى؟ إن أهم الأعمال أن يذكر هذا الرب فلا ينسى، وأن يشكر فلا يكفر، وألا تكون مخلوقاته حجابا دونه، أو عقبات أمام ما يجب له. وقد كان محمد عليه الصلاة والسلام ربانى الشعور والسلوك، يستغل كل شيء لتحية الله، وإعلان حبه، وتقرير وحدانيته. عن ابن عمر: كان رسول الله إذا رأى الهلال قال: `الله أكبر، اللهم أهلك علينا باليمن والإيمان، والسلامة والإسلام، والتوفيق لما تحب وترضى، ربنا وربك الله` . وفي رواية أن النبي الله كان إذا رأى الهلال قال : هلال خير ورشد، هلال خير ورشد، هلال خير ورشد. آمنت بالله الذي خلقك- ثلثا- ثم يقول : الحمد لله الذي ذهب بشهر كذا، وجاء بشهر كذاـ . هذا قلب عابد يرصد الزمن الدوار، ليحمد مقلب الليل والنهار، ويتفاعل بنعمة قادمة، ويشيع نعمة ذاهبة، إن الزمن عنده هبة مبذولة في طاعة الله، وهو ما يضيع من هذا الزمن السائر لحظة في فهو أو غفلة، إنه في صلاة، وصيام، وجهاد، وسعى دؤوب لقيادة الخلق إلى الله. والناس إذا ذكر الصيام يذكرون رمضان، لأنه شهر الفريضة، ولكن النبي عليه الصلاة والسلام كان يصوم حتى يقال: ما يفتر، وقلنا: إنه كان في رمضان يواصل الصيام أحياناً فما يفتر عند الغروب. وهذا من خصائصه التي تفرد بها. وكلماته عندما يفتر تدل على نوع المعاناة التي كان يحبها في صيف يجفف لهيبه الحلوق، ويرهق الأبدان. فعن ابن عمر : كان النبي عليه الصلاة والسلام إذا أفتر قال: `ذهب الظما، وابتلت العروق، وثبت الأجر إن شاء الله` . وقد يقول `اللهم لك صمت، وعلى رزقك أفترت` . وعن عبد الله بن عمرو قال: سمعت رسول الله يقول: `إن للصائم عند فطره لدعوة ما ترد` . قال ابن مليكة: سمعت عبد الله بن عمرو- راوي

هذا الحديث - إذا أفتر يقول: اللهم إني أسألك برحمتك التي وسعت كل شيء أن تغفر لي . سمعت متحدثاً كأنه يعتذر عن مناسك الحج، يقول: إن الله يخترنا بما نعقل حكمته، وبما لا نعقل حكمته، لظهور طاعتنا في هذا وذاك! . قلت: تعني أن المناسك التي كلفنا بها في الركن الخامس غير معقول؟ فسكت تهيباً، ثم قال: ذاك ما أريد، وأنا أطيع الله جل وعز في كل ما يكلفني به. قلت: إن هناك أموراً كثيرة لا صلة لها بقضايا العقل، لا سلباً ولا إيجاباً، ووصفها بأنها لا معقولـةـ غير صحيح. فنحن نكتب لغتنا العربية من اليمين إلى اليسار، وأسرة الدول الغربية تكتب لغاتها من اليسار إلى اليمين، هذه أوضاع لا توصف بأنها مع العقل أو ضده، هذه شؤون تواضع الناس عليها، ومن حقهم ذلك دون ملام على ما ساروا فيه، واختاروه لأنفسهم. عند استعراض الجيوش يكفف الجندي بأداء التحية على نحو معين، فيرفعون السلاح بحركة خاطفة، ثم يصوبونه إلى إحدى الجهات، ثم يردونه إلى أخرى، ثم يستقر على مناكبهم، ثم يتوجهون صوب منصة القائد برؤوسهم... إلخ، ما هذا؟ أمور تواضع الناس عليها، يمكن أن نرفض منها ما ينبو عن الذوق اللطيف، ويمكن أن نستملح ما يوائم طباعنا، ولا صلة لهذا كله بقضايا المنطق العقلي. إن الإسلام يرفض ما يخالف العقل والفطرة، ولكنه لا يعترض المسالك بعيدة عن هذا المجال إلا إذا خدمت باطلـاـ. قال: تقصد أن أفعال الحج من هذا القبيل السائغ؟ قلت: نعم. قال: لماذا يكون الطواف سبعة أشواط مثلاً؟ قلت: السؤال الدوري يسقط تلقائياً، لأنه لو كان أقل أو أكثر لتكرر السؤال. لماذا كان اسمك

فلانا، ولم يكن فلانا؟ إنه سؤال دائر لا نلتزم له بإجابة، ومع ذلك فإن أفعال الحج في جملتها معقولة، ولها حكم بينة. من حق الإنسانية أن تعتز بذكرياتها القديمة، وأن تحيط هذه الذكريات بأسوار من المهابة والتقديس إذا كانت تتصل بعقائدها وقيمها. ومناسك الحج جزء من تاريخ جليل، ومفاتح لخزائن من الروحانية الدافقة والعاطفة الجياشة، ومن ثم كان الارتباط بها ركنا في الدين: "ذلك ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب". ويحتاج هذا الكلام إلى شرح معقول! لماذا تنطلق قوافل البر والبحر والجو صوب البيت العتيق، مقبلة من القرارات الخمس، وفي الأفئدة شوق وفي العيون بريق؟ الحق أن البيت المقصود جدير بهذا الإعزاز كله، فقد بناه أبو الأنبياء إبراهيم ليكون حصنًا للتوحيد وملتقى للركع السجود بعدما اشتbeck عليه السلام مع الوثنية الأولى في صراع حياة أو موت، وقد انتصر إبراهيم في معركة الوحدانية، ورفع هو وابنه إسماعيل قواعد هذا البيت توكيدا للنصر، ومراغمة للكفر: "إن أول بيت وضع للناس للذي بيته مباركا وهدى للعالمين فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنا والله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ومن كفر فإن الله غني عن العالمين". إن المسجد الأول في العالم جدير بأن تشد إليه الرحال، وأن تجيء إليه الوفود بين الحين والحين لتؤدي له التحية. وكل مسجد يبني في المشارق والمغارب بعده ينبغي أن يرتبط به وأن يتوجه إليه، ولذلك كان هذا المسجد المحترم قبلة للمؤمنين كافة: "ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطراه". وشيء آخر في تاريخ الإنسانية يشدننا نحن المسلمين خاصة إلى هذه

لبى ما عن يمينه ويساره من شجر، وحجر، ومدر، حتى منقطع الأرض من ها هنا، وهـا هناـ ولا عجب أن يتجانس الكون المسيح بحمد الله مع إنسان انخلع عن نفسه، وانطلق في سفر صالح يبغي مرضاه اللهـ. وكان النبي عليه الصلاة والسلام لا يريد سفرا إلا قال حينـ ينهض من جلوسه: اللـهم إـلـيـك تـوـجـهـتـ، وـبـكـ اـعـصـمـتـ، اـكـفـنـيـ ماـ أـهـمـنـيـ وـمـاـ لـأـهـمـ بـهــ. اللـهم زـوـدـنـيـ التـقـوـيـ وـاغـفـرـ لـيـ ذـنـبـيـ، وـوـجـهـنـيـ لـلـخـيـرـ أـيـنـماـ تـوـجـهـتــ. اللـهم أـنـتـ الصـاحـبـ فيـ السـفـرـ، وـالـخـلـيـفـةـ فـيـ الـأـهـلـ وـالـمـالـ وـالـوـلـدــ. إـنـ الـحـاجـ إـنـسـانـ مـتـبـلـ إـلـىـ اللهـ، مـتـلـهـفـ عـلـىـ رـضـاـهـ، مـتـطـلـعـ إـلـىـ مـثـوبـتـهـ مـتـخـوـفـ مـنـ عـقـوبـتـهـ، يـتـحـركـ كـلـ شـيـءـ فـيـ بـدـنـهـ بـمـشـاعـرـ الشـوـقــ والـرـغـبـةـ وـالـحـبـ وـلـأـعـرـفـ جـمـعـاـ أـهـلـاـ لـرـحـمـةـ اللهـ وـمـغـفـرـتـهـ كـهـذـاـ التـجـمـعـ الـكـرـيمــ. وـالـسـعـيـ بـيـنـ الصـفـاـ وـالـمـرـوـةـ يـقـعـ عـادـةـ بـعـدـ الطـوـافـ، وـشـعـائـرـ السـعـيـ تـجـدـيـدـ وـتـخـلـيـدـ لـمـشـاعـرـ التـوـكـلـ عـلـىـ اللهــ. كـمـاـ اـسـتـقـرـتـ فـيـ قـلـبـ هـاجـرــ أـمـ إـسـمـاعـيلــ، وـكـمـاـ اـسـتـقـرـتـ فـيـ قـلـبـ رـجـلـهاـ إـبـرـاهـيمـ الـخـلـيلــ. إـنـ التـوـكـلـ شـعـورـ نـفـيـسـ غـرـبـ، وـهـوـ أـغـلـىـ مـنـ أـنـ يـخـامـرـ أـيـ قـلـبــ، إـنـهـ مـاـ يـسـتـطـيـعـهـ إـلـاـ اـمـرـهــ. وـثـيقـ الـعـلـاقـةـ بـالـلـهـ حـمـاسـ بـالـاستـنـادـ إـلـيـهـ وـالـاسـتـمـدـادـ مـنـهــ. وـعـنـدـمـاـ يـنـقـطـعـ عـونـ الـبـشـرــ، وـتـلـاشـىـ الـأـسـبـابـ الـمـرجـوـةـ، وـتـغـزوـ الـوـحـشـةـ أـقـطـارـ النـفـسـ، فـهـلـاـ يـرـدـهـاـ إـلـاـ هـذـاـ الـأـمـلـ الـبـاقـيــ. فـيـ جـنـبـ اللهـ!ـ عـنـدـئـذـ يـنـهـضـ التـوـكـلـ بـرـدـ الـوـساـوسـ وـتـسـكـينـ الـهـوـاجـســ. إـنـيـ بـعـيـنـ الـخـيـالـ أـتـبعـ هـاجـرــ وـهـيـ تـرـمـقـ وـلـيـدـهـ الـظـامـئــ، ثـمـ تـجـرـيـ بـخـطـوـاتـ وـالـهـةـ هـنـاـ وـهـنـاكـ تـرـقـبـ الـغـوـثـ وـتـنـتـظـرـ الـنـجـدةــ. إـنـ ظـئـهاـ بـالـلـهـ حـسـنــ، وـقـدـ قـالـتـ لـإـبـرـاهـيمـ عـنـدـمـاـ تـرـكـهاـ فـيـ هـذـاـ الـوـادـيـ الـمـجـدــ. الصـامـتـ:ـ آـلـلـهـ أـمـرـكـ بـهـذـاـ؟ـ قـالـ:ـ نـعـمــ. قـالـتـ فـيـ رـسـوخـ:ـ إـذـنـ لـاـ يـضـيـعـنـاــ. وـهـاـ هـيـ ذـيـ ذـيـ تـتـعـرـضــ، لـلـمـحـنـةــ، وـتـنـتـظـرـ تـدـخـلـ السـمـاءــ. وـتـدـخـلـتـ السـمـاءــ، وـتـفـجـرـتـ زـمـزـمــ، وـغـنـيـ الـوـادـيـ بـعـدـ وـحـشـةــ، وـصـارـ الرـضـيـعـ الـمـحـرـجــ أـمـةـ كـبـيرـةـ العـدـ عـظـيـمـةـ الـغـنـاءــ، وـمـنـ نـسـلـهـ صـاحـبـ الرـسـالـةـ الـعـظـمـيــ، وـمـنـ شـعـائـرـ اللهــ هـذـاـ التـحـرـكــ بـيـنـ الصـفـاـ وـالـمـرـوـةــ تـقـليـداـ لـأـمـ إـسـمـاعـيلــ، وـهـيـ تـرـمـقــ الـغـيـبــ بـأـمـلــ لـاـ يـخـيـبــ.

ما أحوج أصحاب المثل إلى عاطفة التوكل، إنها وحدها تكثّرهم من قلة، وتعزّزهم من ذلة، وتجعل من تعلقهم بالله حقيقة محترمة، ولعل ذلك بعض ما تعنيه الآية: "إِن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما ومن تطوع خيرا فإن الله شاكر عليم" قال المؤرخون: إن إبراهيم لما ترك هاجر وابنه يواجهان المصير المجهول في هذه البقعة المنقطعة عرض له الشيطان وهو ينقل أقدامه في منى - بعد ما أنفذ أمر الله - يقول له: أيترك أحد أسرته تموت جوعاً وعطشاً على هذا النحو؟ عد فاستنقذ أهلك!! ولكن إبراهيم قدف الشيطان بالحجارة ومضى في طريقه ينادي ربه: "ربنا إنني أسكنت من ذريتي بواذ غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أئمدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون". واستجاب الله للدعاء الخالص، وسقط كيد الشيطان فلم ينل شيئاً من قلب الإنسان المؤمن الواثق، وكانت سنة رمي الجمرات ليعلم من يجهل أن وعد الله حق، وأن وسوسة الشيطان هراء، وما تعلم هذه الوسوسة عملها إلا مع أصحاب القلوب الفارغة : "إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رِبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَُّونَ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشَرِّكُونَ". ومما يلفت النظر أن القرآن الكريم لما أراد أن يذكر رمي الجمرات بمنى لم يستعمل هذا العنوان المألوف، بل عبر عنه بذكر الله في أيام معدودات، قال تعالى: "وَادْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمٌ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأْخُرَ فِي لَيْلَتَيْنِ عَلَيْهِ لَمْنَ اتَّقَى" لأن المقصود من

الموضوع هو الذكر الجهير العالى لرب العالمين، وما رمي الجمرات إلا رمز. والحق أن الحج كله هو هذا الهدير الموصول بذكر الله من أمواج بشريّة متصلة، لا شغل لها إلا الجوار بالتلبية والهتاف بالتسبيح. ومن المؤسف أن رمي الجمرات تحول إلى عمل معنت ترهق في زحامه أرواح ولا يستطيعه إلا أصحاب الجلادة والمغامرة! لماذا؟ لأن الرأي الفقهى السائد أن الرمي لا يصح إلا بين زوال الشمس وغروبها. فكانت الجماهير المتتدفقة في ذلك الوقت العصي تواجه المهالك، وقد رفضت شخصياً هذا الرأي لأنّي لم أعرف له إسناداً من كتاب أو سنة، ورميّت في أوقات خفيفة الحر والزحام. وما يسر الأن أن الحكومة السعودية جعلت للرمي ميداناً أعلى وأخر تحته، وضيّبت طريقى الذهب والعود، وفسحت المجال للقول بأن الرمي يصح خلال الأيام المعهودة ليلاً ونهاراً، فاستنقذت بذلك أرواحاً وأعانت على طاعة؛ إن هناك

مسلمين يطنون الحج جملة مشكلات معقدة، وهؤلاء عسروا اليسير واحتلقوها بدعا لا أصل لها حتى ظن البعض أن لكل شوط في الطواف دعاء خاص، وأن لكل شوط في المسعي دعاء خاص، وألفت كتب لهذه الأدعية ما أنزل الله بها من سلطان. وهناكأشخاص معلولو الفكر يطنون السعي على الأرض أولى من السعي في الدور الأعلى الذي أقامته الحكومة تحفيما لأهوال الزحام، وكذلك في رمي الجمار يطنون أن الرمي على الأرض أهم من الرمي في الدور الأعلى!! وما يدرى هؤلاء أن النبي عليه الصلاة والسلام طاف حول البيت فوق ناقته يشير إلى الحجر الأسود بعصاهم من بعيد ؛ إن الحج عبادة رقيقة محبوبة أساسها الوقوف بعرفة والطواف حول البيت وبعض شعائر أخرى يمكن استيعابها بيسر دون قلق أو حرج. والدين كله يقوم على صدق الإخلاص ونصح الأخلاق وحسن العلاقة بالله وبعباده، والقرآن الكريم يقول في الحج :

الحج أشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفت ولا فسوق ولا جدال في الحج و ما " تفعلوا من خير يعلمك الله وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقون يا أولي الألباب ". وهذه الرحلة بين الأماكن المقدسة تصقل الطبع وتزكي القلب، وتنمي مشاعر الحب لله ولرسوله وجماعة المسلمين، فلا عجب إذا قال رسول الله عليه الصلاة والسلام في أثر هذه الفريضة الجليلة: ` من حج هذا البيت فلم يرث ولم يفسق خرج من ذنبه كيوم ولدته أمه ` . ولقد ثبت أن مكة مركز العمران في هذا العالم، واستطاع الدكتور حسين كمال الدين ` أستاذ الهندسة بجامعة الرياض أن يثبت بحسابات رياضية عالية أن مكة تتوسط القارات المأهولة، وأن وضعها الذي قرره العلم الحديث تفسير حقيقي لقوله تعالى: "وكذلك أوحينا إليك قرءانا عربياً لتتذر أم القرى ومن حولها وتتذر يوم الجمع لا رب فيه.." . فحول الكعبة المشرفة دوائر متابعة الرحابة من الركع السجود، يتلوها غيرها من المسلمين الذين اتخذوا المسجد الحرام قبلتهم، وعلى امتداد خطوط الطول والعرض تسمع كلمات الأذان وتحنني الأصلاب والجباه ركوعاً وسجوداً لأهل الحمد والمجد، رب المشارق والمغارب، رب العالمين. في موسم الحج تلتقي مكة بالوفود المقبلة من كل فج عميق، تلتقي بأفراد الإنسانية الموحدة المهتمة المحبة لله وللمسجد الأول أبي المساجد؛ في القارات كلها تتتصافح الوجوه وتتعارف النفوس على تلبية النداء الصادر بحج البيت، النداء الذي صدر من قديم، وزاده الإسلام قوة وجدة

وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل صامر يأتي من كل فج عميق ليشهدوا "منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات". ووفود الله القادمة إلى مكة تصنع مجتمعاً شغله الشاغل ذكر الله، والهتاف باسمه المبارك. في الأحياء التجارية يكون تبادل السلع والأثمان هو الحركة السائدة.. في الدواوين الحكومية يكون تنقيل الأوراق من هنا وهناك مظهر الحياة البارز. لكن الحجاج والعمار يقيمون سوقاً للصالحات لها جوار هائل بالتلبية والتکبير لأن الأرض تحولت بهم إلى أفق يعج بالملائكة المتعبدین. قال النووي يرسم عمل الحجيج: "ويستحب الإكثار من التلبية. يستحب ذلك في كل حال، قائماً وقاعداً، ماشياً وراكباً، مضطجعاً ونازلاً وسائراً، محدثاً وجنباً وحائضاً. وعند تجدد الأحوال وتغيرها زماناً ومكاناً، كإقبال الليل والنهر، وعند الأسحار، واجتماع الرفاق، وعند القيام والقعود والصعود والهبوط والركوب والنزول، وفي أدبار الصلوات، وفي جميع المساجد". ثم قال النووي: "وإذا رأى شيئاً أعجبه قال: لبيك، إن العيش عيش الآخرة.. اقتداء برسول الله عليه الصلاة والسلام". ولبواعث هذا الإعجاب قصة، فقد روی الشافعی عن مجاهد قال: كان النبي عليه الصلاة والسلام يظهر التلبية: لبيك اللهم لبيك.. إلى آخرها حتى إذا كان ذات يوم والناس يدفعون عنه، فكانه أujeبه ما هو فيه فقال: لبيك إن العيش عيش الآخرة . قال ابن حريج: "حسبت أن ذلك كان يوم عرفة". من حق عشرات الآلاف من الحجاج أن يزدحموا حول نبيهم، وهو

يجار بذكر الله. إنه صانع هذه السيرة وقائدها. لكن محمدا الصخم لا يزدھيھ أن تزدھم حوله الأتباع، إن فؤاده المعلق بالله، المرتقب للقائه، جعله يذکر الآخرة، ويؤمل في غدھا القريب. ولقد سمع وهو على الصفا يقول: ﴿الله أكبير الله أكبير. الله أكبير والله الحمد. الله أكبير على ما هدانا. والحمد لله على ما أولانا. لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد. يحيي ويميت، بيده الخير، وهو على كل شيء قادر. لا إله إلا الله، أنجز وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده. لا إله إلا الله، ولا نعبد إلا إياه مخلصين له الذين، ولو كره الكافرون. اللهم إنك قلت: "ادعوني أستجب لكم" وإنك لا تخلف الميعاد. وإنني أسألك كما هديتني للإسلام أن لا تنزعه مني حتى تتوفاني وأنا مسلم﴾. سبحان الله، أمل الرسل الكرام من قبل! إن يوسف الصديق - بعدهما أوتى الملك - دعا الله أن يميته على الحق: "...فاطر السماوات والأرض أنت وليي في الدنيا والآخرة توفني مسلماً وألحقني بالصالحين". كذلك يدعو محمد ربه، وهو في حجة الوداع، بعدهما نكس الأوثان، ومحا الجاهلية وأقام دولة التوحيد! والجميل أنه بعد خمس سنين من غزو الأحزاب للمدينة يذكر النصر الذي منحه القدر، والذي جاء نجدة مشرقه بعد كفاح معنٍ رهيب.

إنه الله! أجز وعده وهزم الأحزاب وحده، وما كان غيره يفل حدهم ويمزق شملهم ويبيطل كيدهم. إنه الله! أهل الحمد والثناء، وأهل التقوى وأهل المغفرة. هل استراح الإيمان وحملته بعد هذه المعارك المظفرة؟ كلا... إن القوى الكافرة ستظل تبغض الحق ورجاله، وتقلب لهم الأمور، بيد أن رجالات الإسلام سيمضون في الطريق إلى نهايته ولو كره الكافرون. تتبع كلمات النبي عليه الصلاة والسلام في مناسك الحج، ظاناً أنني سأطالع أدعية مستفيضة ففوجئت بوجازة الكلمات التي قالها!. لكن المسلمين أحدثوا لكل شوط في الطواف أو السعي ورداً يتلى، وأحدثوا ليوم عرفة أدعية مسحبة، والعاطفة وراء هذا الإلحاح مقدورة، والمقبل على الله لا يستغرب منه أن يستعين بكل كلمة تترجم عن شوقه وأمله، وأن يتثبت بكل حرف يظنه مفتاحاً لخزائن الرحمة العليا. إن أي مسلم ينشد لنفسه وأهله الرضا والقرار، فهو يقول مع موسى الكليم: "رب إني لما أنزلت إلي من خير فquier...". والدعاء الذي لم يسام النبي تكراره في الطواف والسعي : "ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار". والنшиد الذي يتردد بين قمم الجبال ويطون الأودية هو : `لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْحَمْدُ، وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ` الألوف المؤلفة تصرخ به، وتتلacci عليه.

ذكر وتذكير في وهج الحر قد يأوي المرء إلى حجرة مكيفة الهواء، يبقى داخلها مراح الأعصاب! وربما كان حظه أتم فذهب إلى مصيف عليل الريح لطيف الأنفاس، فهو - حيثما اتجه - في ربيع دائم. إن علاقة المؤمنين مع ربهم، نور السموات والأرض، تتراوح بين هذه المنازل، فقد يعيش العابد في صومعة معزولة عن ضحيج المجتمعات وأثامها، راكنا إلى الحميد المجيد، الفعال لما يريد، فهو سعيد بربه ترنو إليه بصيرته، وتتعدد عنده وجهاته، ويظل كذلك بعيدا عن لفح الحياة الضالة، والوعج الشائع. وربما رزق بيئه صالحة، انهزم فيها الشيطان، واستقر في جنباتها الحق، وتجاوزت في أرجائها أصداء التسبيح والتحميد، فهو يمشي على نور من يقينه، وأنوار من إخوانه المتعاونين معه على البر والتقوى. كان الصحابة رضوان الله عليهم يستمتعون في حوار النبي عليه الصلاة والسلام بريع دائم من الأنس بالله، والهتاف باسمه. وكان النبي الجليل - كما وصفه ربه - سراجا منيرا يرمي بأشعته في كل أفق، ويجمع الناس على وحدانية جياشة المشاعر والمسالك، تتصدر كونا كبيرا، كل شيء فيه يسبح بحمد ربه. شعرت بأبعاد العبودية التي قامت عليها سيرة النبي الخاتم في مناح كثيرة من حياته عليه الصلاة والسلام، ولكنني تريشت طوبلا عند طرفة عميقة الدلالة، رواها

ابن عباس قال : " جاء رجل إلى النبي عليه الصلاة والسلام فقال: رأيتنى الليلة وأنا نائم كأني أصلى خلف شجرة، فسجدت فسجدت الشجرة لسجودي ! فسمعتها تقول: اللهم اكتب لي بها أجرا، وحط عنى بها وزرا، واجعلها لي عندك ذخرا، وتقبلها مني كما تقبلتها من عبدي داود عليه الصلاة والسلام !" قال ابن عباس: " سمعت رسول الله قرأ سجدة، ثم سجد، فقال مثل ما أخبره الرجل عن قول الشجرة !! ". هذه الظرفة، كما قلت، عميقه الدلالة فهي تدل على أن صاحب الرؤيا أحسن الاستفادة من تعاليم الإسلام حتى نضح بذلك على سريرته وهو نائم. وهي تدل كذلك على أن فؤاد الرسول المريي موار بعاطفة من حب الله يهيجها أي شيء، فقد التقط الدعوات المنسوبة إلى الشجرة، وأخذ يرددتها هو في سجود خاشع لرب العالمين. وصلة الأنبياء بالله تتحرك للملابسات المثيرة. إن زكريا لما رأى القدرة العليا تتجرد من قانون السببية، وتسوق الفضل الإلهي إلى مريم بغير حساب، انعطف إلى ربه يجأر: " هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء ". محمد عليه الصلاة والسلام تربطه بنور السموات والأرض روابط فوق الحصر. وقد كان جهده أن يجعل البيئة كلها من حوله عابدة ساجدة ذاكرا شاكرا. روى النسائي عن يعقوب بن عاصم عن رجلين من أصحاب رسول الله أنهما سمعا النبي عليه الصلاة والسلام يقول: ` ما قال عبد قط: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قادر، مخلصا بها روحه، مصدقا بها قلبه، ناطقا بها لسانه، إلا فتق الله له السماء فتفا، حتى ينظر إلى قائلها من الأرض ! وحق لعبد نظر الله إليه أن يعطيه سؤله . لا أحب أن أفسد هذا المعنى السمح بتكلف تأويل ! كل ما يفيده

ال الحديث المروي أن القلب الموحد قد تعرض له فورات إخلاص وصدق، تجعل كلمة التوحيد تنطلق من فمه، فما يقفها دون عرش الرحمن شيء! وما يشقي صاحبها بعدها أبداً.

والتوحيد المذكور في هذه السنن يقوم على فقه لأسماء الله الحسنى، واصطباح بمعانها، والحمد لله أو المادح له أهل لأن يعود قرير العين. ويحضرني قول لأحد العارفين وقد سئل: ما أفضل الدعاء يوم عرفة؟ أجاب: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، ولهم الحمد، وهو على كل شيء قادر. قيل له: هذا ثناء، لا دعاء! قال: أما تعرف قول الشاعر: أذكر حاجتي أم قد كفاني حياوك إن شيمتك الحياة! إذا أثني عليك المرء يوماً كفاه من تعرضه الثناء! روى الطبراني أنه كان مما دعا به النبي عليه الصلاة والسلام عشية عرفة: اللهم إنك ترى مكاني، وتسمع كلامي، وتعلم سري وعلانيتي، لا يخفى عليك شيئاً من أمري؛ أنا البائس الفقير، المستغيث المستجير، الوجل المشفق، المقر المعترف بذنبه، أسألك مسألة المسكين، وأبتهل إليك ابتهال المذنب الذليل، وأدعوك دعاء الخائف الضرير... من خضعت لك رقبته، وذل جسده رغم أنفه... اللهم لا تجعلني بدعائك شقياً، وكن بي رؤوفاً رحيماً، يا خير المسؤولين ويا خير المعطين . وارتباط الثناء بالدعاء ملحوظ في قول النبي عليه الصلاة والسلام : أَعُوذُ بِرَبِّكَ مِنْ سُخْطَكَ، وَأَعُوذُ بِمَعْافِكَ مِنْ عَقْوبَتِكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ سُبْحَانَكَ لَا أَحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ . وكذلك في قوله عليه الصلاة والسلام: أَفْضَلُ الذِّكْرِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَفْضَلُ الدُّعَاءِ الْحَمْدُ لِلَّهِ . ولتنبه إلى أن حركة الشفتين - والقلب وسنان - لا تعني شيئاً؛ أما عندما يكون النطق ترجمة لشوق هائج، وفؤاد مفعم، فإن النعم على كثرتها تصاغر أمام حمد مرسليها، والإحساس بمنته

عن أنس، قال رسول الله عليه الصلاة والسلام: `ما أنعم الله على عبد نعمة فقال: الحمد لله إلا كان الذي أعطى أفضل مما أخذ` وفي رواية: `لو أن الدنيا بحذافيرها في يد رجل من أمتي ثم قال: الحمد لله، لكان الحمد لله أفضل من ذلك` . قال القرطبي وغيره: أي لكان إلهامه الحمد أكثر نعمة عليه من نعم الدنيا، فثواب الحمد لا يفني، ونعيم الدنيا لا يبقى! وهذا تفسير حسن. والتفسير القريب أن حمد الله - تبارك اسمه - كافي في تقدير النعمة وتفسيدها مهما كانت كبيرة. على أن إحسان الحمد والمدح لا يقدر عليه كل إنسان، كيف تمدح من تجهل؟ كيف تحمد من لا تعامل؟ الأمر يحتاج كما أشرنا إلى فقه في أسماء الله الحسنى يكشف عظمة الذات والصفات وذلك يقوم على جملة عناصر: منها تدبر القرآن الكريم حين يتحدث المولى الجليل عن نفسه ويبيصر بآياته، إن الرجل العادى يستقبل النهار، ويستدب الليل دونوعي، وهنا يستثير القرآن الكريم وعيه، من فعل ذلك؟ الله "فالق الإاصلاح يجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم". والمرء يرى ببلاهة مساحات هائلة من الحقول والحدائق ينشق فيها الطين الأصم عن أنواع كثيرة من الحبوب والفوائحة. من صاغها على هذا النحو المعجب وحشاها بالسكر والنشا وشتى الطعوم والروائح؟ "وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه .." بعد هذا اللفت المبين يتلطف السيد مع عبده، يتلطف رب العالمين في إيقاظ الجماهير الغافلة فيقول

انظروا إلى ثمرة إذا أثمر وينعه إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون". إن التأمل في الكون باب .."
واسع إلى معرفة جملة من أسماء الله الحسنى، ودلالة هذه الأسماء على الله تبارك
وتعالى. ومع التأمل في الكون يجيء التأمل في أحوال الأفراد والأمم، ودراسة التاريخ قديمه
وحديثه، وكيف يعطي ربنا ويمنع، وكيف يضحك ويبكي؟!. إن المسافة لا تطول كثيراً بين قول
فرعون: "ما علمت لكم من إله غيري" وبين قوله حين شدته موجة غضب إلى قاع اليم: "
آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل". ولكننا - عشر البشر - صرعي الساعة
الحاضرة، وما نحسن دراسة سنن الله في الآحاد والجماعات. وكم من أمم ركبت رأسها ثم
كبت بعد أيام أو أعوام: "ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجاري إلا الكفور". وقد حوى القرآن
صنوف العبر من هذا القبيل حتى يعرف الناس ربهم ويحسنو مراقبته وتقواه، وتنغرس في
خلالهم مشاعر الرغبة والرهبة على نحو ما قال النبي عليه الصلاة والسلام: `لو يعلم
المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع في جنته! ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما
قطط من رحمته أحد!` . والمعرفة النظرية بالكون وعلومه والناس وتاريخهم يجب أن تتحول
إلى إحساس وعمل، وإلا فهي كالطاقة الكهربائية المحبوسة وراء مواد عازلة ما تنير
مصالحاً، ولا تحرك آلة. وهنا أقول: إن أعظم إنسان عرف ربه، وتحولت كل ذرة في كيانه

إلى قوة ساجدة هو محمد بن عبد الله الذي كان القرآن له خلقا، فهو يستبطن معانيه ويدور مع توجيهه، إنه مشدود أبدا إلى آيات الله في الوحي الهادي والملكون الواسع، وهو يجتذب من اتصل به إلى هذا المستوى الظهور العالى، فيجعله عارفا بالله، قواما بأمره. لذلك رأينا صاحبته أصدق الناس إيمانا، وأصفاهم فطرة. ولست أصدق أن أحدا يجعل محمدا ثم يتخذ إلى الله طريقا موصلا. أبرز ما في سيرة هذا النبي أن حبه لله، وإعظامه لله، وتفانيه في الله ينتقل من نفسه إلى من حوله، فكأنهم في سباق إلى حمد الله والثناء عليه.. وللننظر إلى هذه الأحاديث. روى أحمد عن عبد الله بن عمر أن عبدا من عباد الله قال: `يا رب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك، ولعظيم سلطانك... فغضلت بالملكين فلم يدريرا كيف يكتبانها، فصعدا إلى السماء فقالا: يا ربنا إن عبدك قد قال مقالة لا ندري كيف نكتبها! قال الله - وهو أعلم بما قال عبده - : ماذا قال عبدي؟ قالا: يا رب إنه قد قال: يا رب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك، ولعظيم سلطانك. فقال الله لهم: اكتباها كما قال عبدي حتى يلقاني فأجزيه بها..` . وظاهر أن هذا العابد كان في سياحة روحية طوفت به في آفاق لا يعلمه إلا الله، استجمعت فيها من الآيات وال عبر ما شحن قلبه، وغمر جده، وغلب على ظاهره وباطنه، فلم ير إلا أن يحيي ربه بهاتين الجملتين. ورأى الملائكة أن ما قال فوق ما لديهما من ضوابط الأجور، ففعلما ما فعلـا. وعن أبي أيوب ، قال رجل عند رسول الله عليه الصلاة والسلام الحمد لله حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه، فقال رسول الله: `من صاحب الكلمة؟ فسكت الرجل، وطن أنه قد هجم من رسول الله على شيء يكرهـه! فقال رسول الله: `من

هو؟ فإنه لم يقل إلا صواباً . فقال الرجل: أنا قلتها يا رسول الله أرجو بها الخير، فقال رسول الله عليه الصلاة والسلام : `والذي نفسي بيده لقد رأيت ثلاثة عشر ملكاً بيتدرون كلمتك. أيهم يرفعها إلى الله تبارك وتعالى . وعن أنس بن مالك قال أبي بن كعب : لأدخلن المسجد فلأصلين، فلما صلى وجلس ليحمد الله ويثنى عليه، فإذا هو بصوت عالٍ من خلفه يقول: اللهم لك الحمد كله، ولك الملك كله، وبيك الخير كله، وإليك يرجع الأمر كله، علانيته وسره، لك الحمد إنك على كل شيء قادر. اغفر لي ما مضى من ذنبي، واعصمني فيما بقي من عمري، وارزقني أعمالاً زاكية ترضى بها عنِّي، وتب علىي. فأتى رسول الله عليه الصلاة والسلام، فقص عليه، فقال: `ذاك جبرائيل عليه السلام . وليس غريباً أن يهبط الملك بهذه الدعوات ليستوعبها قلب يشرئب إلى مدح الله على نحو لم يسبق إليه، لقد كانت الملائكة تننزل عندما يقرأ بعض الصحابة القرآن الكريم. الشيء الذي يستدعي التساؤل: من الذي دفع هؤلاء الأصحاب إلى الإيغال في طريق التوحيد والتقديس حتى تفجرت ينابيع الحكمة من ألسنتهم ونطقوا بكلمات زاكيات في تمجيد الله وإجلاله؟ إنه النبي العربي محمد. من غيره وراء هذه العواطف المشبوهة؟ إنه الإنسان العباد السجاد الذكار الشكار الذي لهم التسبيح والتحميد مع كل زفير وشهيق، لقد حول الأرض إلى حلبة تنافس السماء في الذكر والشكر. عن النعمان بن بشير، قال رسول الله عليه الصلاة والسلام: `إن مما تذكرون من إجلال الله من التسبيح والتحميد والتهليل، ينطعن حول العرش لهن دوي النحل، تذكر ب أصحابها! أما يحب أحدكم أن يكون له، أو لا يزال له، ما يذكر به؟ .

وعن عبد الله بن مسعود: إذا حدثكم بحديث أتيناكم بتصديق ذلك في كتاب الله، إن العبد إذا قال: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله والله أكبر، وتبarak الله، قبض عليهن ملك، فضمهمن تحت جناحه، وصعد بهن لا يمر على تجمع من الملائكة إلا استغفروا لقائلهن، حتى يحييا بهن وجه الرحمن، ثم تلا عبد الله: «إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه».

قالوا: فاقد الشيء لا يعطيه، ومن تمام ذلك أن يقال: ومعطي `الكثير لابد أن يكون لديه أكثر! إن الأنهر الجارية تجيء عقب مطر هتان يسح أناء الليل، وأطراف النهار. والحق أن السلف الصالحين الذين تربوا بين يدي محمد، وكل جيل من الأبرار تبعهم بإحسان إلى يومنا هذا، ثم إلى آخر الدهر، إن هؤلاء، وأولئك بشخصية محمد تأثروا، وبروحانيته استناروا، ومن رسوخ يقينه استمدوا. إن صحبته في حياته، وصحبة مواريثة العقلية والخلقية بعد مماته تفعل الأعاجيب، وبقدر الاقتباس من مولد الطاقة تكون القوى الروحية والفقهية، والأساس كله عظمة المصدر. إن بيننا وبين الشمس مائة وخمسين مليون كيلومتر، من ناحية البعد، ولا نdry من ناحية الزمان متى بدأ إشعاعها؟ لكن بعد الزمان والمكان لم يغير من قدرة الشمس على الإضاءة والإنساج واستبقاء الحياة على كوكبنا. كذلك اثر محمد عليه الصلاة والسلام في المستقدمين والمستاخرين، اثر عبادته وقيادته، اثر سيرته ودعوته، وإن طال الزمان، واتسع المكان!. ومنهج الذكر والتذكير في رسالة خاتم المرسلين يحتاج إلى شرح.

إن الصدق العقلي أساسه الأول، والكلمات التي أهاب الإسلام بأتباعه أن يرددوها هي

فكلمة: لا إله إلا الله، أو سبحان الله، أو تعالى الله، تعني تقرير الصواب وتوكيده في أخطر أصول الاعتقاد. تدبر قوله جل شأنه: "ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون". ليس الله ألم، ولا أب، ولا ابن ولا ابنة، إنه واحد، وما عداه عبد يخضع لأمره، وإذا شاء سحب منه نعمة الوجود، فباد وتلاشى. نعم، ما عدا الله فهو جزء من الكون الذي يبقى لأن الله يمدء بالوجود بعدها أوجدها بدءا، كما يخدم المصباح إذا قطعت عنه التيار. نعم، لا شريك لله، ولا حول ولا قوة إلا به، له وحده الفضل والملك والحمد. ومحمد - عليه الصلاة والسلام - أحذر البشر صوتا بهذه الحقيقة، وأغير الناس عليها، وقد ذاد بصوته ويده خرافات كثيفة عكرت صفوها واستنقذ جماهير هائلة كانت جائرة عنها. ولا تعرف في سير الأنبياء، وقادة الإنسانية الكبار من قام بمثل جهده ولا من نجح مثل نجاحه، ولا أحسب الأبالسة ومerdeة الإنس والجن غاظهم أحد ولا اعترض آثامهم غاضب لله، مثل ما فعل محمد القوي بربه، المجاهد في سبيله، فقد أنصت الحق من الباطل، والرشد من الغي. وبني - وهو قوام الليل - حيوشا يشق تكبيرها عنان السماء، تصرخ بأن الله واحد، وأن الخلق كلهم - وأولهم محمد - عبيد لمن فاضت عليهم بركته، ونطقت معايشهم حكمته. إذا كان الدين قلبا طيبا، فهو قبل ذلك عقل سليم، وفكر حسن، وعلم صحيح:

شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائمًا بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم". "ونحن لا نسمّى. من توكيـد هذا القول لأن الدنيا لا تزال تسمع من يقول: إن الله أبا، وأبا، وإن الذات المقدسة ثالوث ذو رؤوس متميـزة هي أب وابن وروح قدس.. وهو كلام صفر من آية حقيقة، مصدره إشاعة من بعض العقول العليلة، والخيالات المغالـية الجانحة للأوهام؟ كلام ما قاله النبي سبق، ولا أقره عقل محترم. وأهل الكتاب - أعني النصارى خاصة - يكرهون كلمة التوحيد، وقد حاربوها ولا يزالون، وسوف نقىـ عليها، ونلقـى ربنا بها. روى أـحمد عن شداد بن أوس - وعبادة بن الصامت يصدقـه . قال كـنا عند النـبي صـلى الله عـلـيه وسلم فـقال: هل فيـكم غـريب؟ - يعني من أـهل الكتاب . قـلـنا: لا يا رسول الله. فأـمر بـغلـق الـباب، وـقال: ارـفعـوا أـيديـكم وـقولـوا: لا إـله إـلا الله . كـأنـه يـبـاعـهم . فـرفعـنا أـيديـنـا ساعـة . فـتـرـة . ثم قال: الحـمد للـه، اللـهم إـنـك بـعـثـتـنـي بـهـذـه الـكلـمة، وـأـمـرـتـنـي بـهـا، وـوـعـدـتـنـي عـلـيـها الجـنـة، وـأـنـتـ لـا تـخـلـفـ . ثم قال: المـيعـاد، ثم قال: ابـشـرـوا فـإـنـ الله قد غـفـرـ لـكـم . وـسـنـاءـ الفـكـرـ، مـهـما بلـغـ، لـا يـعـني عـنـ زـكـاةـ الـقـلـبـ، وـصـفـاءـ الرـوـحـ. لـقـدـ كانـ إـبـلـيـسـ يـعـلـمـ أنـ اللهـ وـاحـدـ، وـلـكـنـهـ أـبـىـ أنـ يـلتـزمـ بـمـبـداـ السـمعـ وـالـطـاعـةـ، أـبـىـ أنـ يـتواـضـعـ وـيـنـكـرـ ذـاتـهـ، أـبـىـ أنـ يـكـبـتـ نـزـوـاتـ الـحـقـدـ وـالـاسـتـطـالـةـ عـلـىـ الآـخـرـينـ، أـبـىـ أنـ يـكـوـنـ عـبـدـاـ حـقـاـ اللهـ. وـالـهـيـكـلـ الـأـخـلـاقـيـ الضـخـمـ الـذـيـ بـنـاهـ صـاحـبـ الرـسـالـةـ الـخـاتـمـةـ إـنـماـ يـنـهـضـ عـلـىـ قـلـبـ سـلـيـمـ، تـرـتـيبـ بـالـلـهـ رـغـبـتـهـ وـرـهـبـتـهـ، وـلـذـلـكـ قـالـ: التـقـوـىـ هـاـهـنـاـ التـقـوـىـ هـاـهـنـاـ، التـقـوـىـ هـاـهـنـاـ وـيـشـيرـ إـلـىـ قـلـبـهـ. وـالـقـرـآنـ بـعـدـماـ يـشـرـحـ الـحـقـيقـةـ الـعـلـمـيـةـ يـشـرـحـ: الـحـقـيقـةـ الـرـوـحـيـةـ، أـوـ الـخـلـقـيـةـ وـمـاـ يـنـبـغـيـ عـلـيـهـ مـنـ سـلـوكـ. قـالـ تـعـالـىـ

إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يعشى "الليل النهار يطلبه حثيثاً والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين". ماذا بعد هذه الحقائق العلمية عن رب الزمان والمكان : "ادعوا ربكم تضرعاً وخفيه إنه لا يحب المعتمدين" لا بد أمام الله من الضراعة والدعاة المصحوب بالفقر، المقربون بالخفوت - لأنه أدل على الذات وما فيها - ومن تجاوز هذا المستوى فهو يعده حدوده. ثم ماذا؟ إن الله قد نظم للأرض ما تصلح به فلا يجوز أن نثير الفوضى فيما وضع، علينا أن نبلغ بالأعمال حد الإتقان، ولبيق نظرنا إلى السماء دائمًا نرجو الخير، ونحذر الشرور: "ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها وادعوه خوفاً وطمئناً إن رحمة الله قريب من المحسنين" وفي مكان آخر من السورة نفسها يقول تبارك اسمه : "واذكر ربك في نفسك تضرعاً وخيفة دون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الغافلين". والذكر المقصود حركة قلب، لا حركة لسان كما يتوهם الجهال، حركة قلب يوجه صاحبه هنا أو هناك وينشطه أو يكتبو به. عن أم أنس رضي الله عنها قالت: يا رسول الله أوصني قال ﴿اهجري المعاصي فإنها أفضل الهجرة، وحافظي على الفرائض فإنها أفضل الجهاد، وأكثرى من ذكر الله فإنك لا تأتين الله بشيء أفضل من ذكره﴾ . الذكر الذي جاءت الوصايا به شيء آخر غير ما يسبق إلى أذهان الدهماء. إنه مصدر السكينة والاستقرار تجاه صروف الدنيا ومتاعبها، ففي

حضارتنا المعاصرة كثُر المثقفون، وشاعت المعارف الذكية، ومع ذلك فإن اضطراب الأعصاب، وانتشار الكآبة داء عام. ما السبب؟ خراب القلوب من الله! إنها لا تذكره كي تتعلق به وتركته إليه، وكيف تذكر من تجاهله؟ إن الحضارة الحديثة مقطوعة العلاقة بالله، والإنسان مهما قوي ضعيف، ومهما علم قاصر، وحاجته إلى ربه حاجة الطفل إلى أبيه يحنون عليه، ويحميه. وذكر الله أمام الأزمات والنوائل عزاء ورجاء، قال تعالى: "الذين آمنوا وطمئن قلوبهم بذكر الله ألا يذكر الله طمئن القلوب الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن ما ب". وقد كان محمد صلى الله عليه وسلم أوثق الناس بالله، وأشد هم تعلقا به، منذ بدأ الدعوة قيل له: "واذكر اسم ربك وتبتليه تبتليا رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا" من يومها توكل على الله وواجه قوات الشرك والكفر، فما هان ولا استكان. وقد علم محمد الناس أن يثقوا من حنون الله عليهم، ورحمته بهم، وأفهمهم أنه أحنى عليهم، وأرحم بهم من الألم برضيعها، فلماذا ينأون عنه، ويفرون منه؟. وذكر الله هو وحده أساس الضمير الكاره للآثام، العاصم من الانحراف. أعرف أن هناك أناسا لهم حناجر صياحة باسم الله، إنني لا أعني هؤلاء أبدا، إنما أعني إنسانا يحس بإشراف الله عليه "فلنقضن عليهم بعلم وما كانوا غائبين" فإذا هم بسوء توقف، وإذا زين له الشيطان قبيحا كشف خداعه ورفض متابعته واستحضر عظمة ربه، وأمره، ونهيه، فاستقام

هذا الذاكر العفيف النبيل هو الذي عنته الآية الكريمة ". وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى". ما أكثر الألسنة المتحركة باسم الله، وأقل جدواها! وما أnder الأفئدة الخاشعة لذكر الله، وأحوج العالم إليها! إن فساد الأديان يجيء من تحولها إلى ألفاظ ومظاهر، وما يؤدي الدين رسالته إلا يوم ينشئ ضمائير حية وسرائر طهورا، وقلوبا ترمق الشهود الإلهي برهبة، ذلك هو الذكر الحق. ومن آثار هذا الذكر أنه يحكم غريزة حيث المال، فالذاكرون لا يلهيهم التكاثر، ولا تزري بهم طبائع الجشع والشح، هم يأخذون المال من حلهم، ويضعونه في حقه، ولا يحبسونه ووجوه الخير تنتظره، بل هم كما قيل: لا يألف الدرهم المضروب صرتنا لكن يمر عليها وهو منطلق والغاشون من رجال الأديان سقطوا في حبائل المال وجمعه واكتنازه، فأعانوا أو سكتوا عن الحكم الفاسقة، ومهدوا الطريق أمام الفلسفات الملحدة كي تحكم بعدها ساعات سمعة الدين، والمتحدثين باسمه. لكن النبي

العربي محمد وزع كل ما جاءه من أمواله على الناس، وخرج من الدنيا بلا ميراث لأهل، وربى رجالا يؤثرون وجه الله على متاع الدنيا كله: "ويطعمون الطعام على حبه مسكونا ويتيمها وأسيرا إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا". والطريف أن العشرة المبشرين بالجنة كانوا من هذا الطراز الذي ملك الدنيا، ونزل عنها الله. ليس النجاح أن يكون المرء عديم المال والأهل، ولكن النجاح أن

يكون المرء كثير المال والأهل، ومع ذلك لا يشغله شيء من ذلك عن ربه مصدق قوله سبحانه وتعالى: "يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتني إلى أحل قريب فأصدق وأكن من الصالحين ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أحلها".

ولذكر الله آثار كثيرة في الأخلاق والمسالك ليس هنا موضع تتبعها، وحسبنا أن نقول: إن ذكر العظيم يرفع القدر ويعقد العزم، والاستعداد للقاء يمنع الطغيان، ويضبط الحقائق. من عرف الناس بريهم، وذكريهم بحقوقه، وفند الإشاعات الباطلة في ميدان العقائد، وبين أنه لا إله إلا الله؟ إنه محمد عليه الصلاة والسلام، لكن كيف نجح في اقتياد الأجيال إلى الصراط المستقيم؟ إنه عندما بدأ الدعوة في مكة هاج عليه الأكثرون: "و قالوا يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون" بيد أنه مضى إلى غايته يحارب الجنون المتبرج وما زال بعين الله حتى أقام دولة الحق. كان القرآن خفقة، كانت دراسته لباب فكره وتيار شعوره، كانت وصاياه وأوامره ونواهيه جوهر سلوكه وأساس علاقاته بالناس جميعاً، كانت تلاوته سعادة روحه وفرة عينه ومرضاة ربه. وفي الحديث: `ما أذن الله لشيء إذنه لنبي يقرأ القرآن يتغنى به`، إن ما صدر عن الله وحيا، يطبق في الأرض قانوناً وخلقها، ثم يعود إليه نغماً عذباً. ونذكر هنا قصة عن أثر القرآن في نفس رجل مشرك، قال جبير بن مطعم: إن أباه قدم المدينة مفاوضاً عن قريش في افتداء أسرى بدر،

والرجل من عظماء مكة، والمهمة التي جاء من أجلها تخلص سبعين من صناديد قريش أوقعهم البطر بأيدي المسلمين. وسمع الرجل المشرك نبي الله وهو يقرأ سورة الطور في صلاة المغرب، قال: "ما سمعت أحداً أحسن صوتاً أو قراءة منه"، واستمر الرجل يسمع الآيات في المحراب الخاشع المخبت، وهو مسحور بالتلاؤة المرسلة، قال: فلما بلغ هذه الآيات "أَمْ خلقو من غير شيء أَمْ هُمُ الْخالقُونَ أَمْ خلقو السماوات والأرض بل لا يوْقنُونَ" إلخ.. قال مطعم: "كاد قلبي أن يطير". وكان سمعاه هذه الآيات - وهو مشرك - سبباً في دخوله الإسلام بعد ذلك. ونتوقف هنا قليلاً، إن سورة الطور مكية، ولا شك أنها قرئت في مكة مئات المرات فهل لم يسمعها الرجل إلا اليوم؟ ربما، فإن المشركين هناك تواصوا بإحداث شغب وضوضاء حول مجالس القرآن حتى لا تغزو معانيه قلباً، فيؤمن بالله. وربما سمعها من قبل ولكن التعصب والكبراء صداه عن الحق فلما قللت الهزيمة أظافر قريش، وعاد إليها رشدتها وتواضعها، أخذت تفك في مما تسمع. وقد نظمت أنا في الآيات التي روعت قلب الرجل، وتجدد في نفسي إحساس بما أودع فيها من عبرة، إن الآيات قصيرة، ولكنها ذات جرس لاذع رهيب! إنها تشبه المفتاح الدقيق لخزائن ضخمة، فالمعنى الذي تهجم على الفؤاد بعد سمعها تشبه العواصف العاتية، تكررت كلمة 'أَمْ' خمس عشرة مرة، وأُمْ عند علماء اللغة تجزيء في هذا السياق للإضمار الذي يعقبه استفهام قد يكون توبيناً، أو تقريراً، أو تعجيناً.

إن النفس الإنسانية تتقلب على هذه المشاعر بما ينفي عنها الغفلة، ويرغمها على الانتباه. "فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون" "أم يقولون شاعر نتريص به ريب المنون قل تربصوا فإني معكم من المتربيصين" "أم تأمرهم أحلامهم بهذا أم هم قوم طاغون" "أم يقولون تقوله بل لا يؤمنون فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين" "أم خلقوا من غير شيء أم هم الحالقون" "أم خلقوا السماوات والأرض بل لا يوقنون" "أم عندهم خزائن ربك أم هم المسيطرةون" "أم لهم سلم يستمعون فيه فليأت مستمعهم بسلطان مبين" "أم له البنات ولهم البنون

أم تسألهם أحرا فهم من مغرم متقلون" "أم عندهم الغيب فهم يكتبون" "أم يريدون كيدا " فالذين كفروا هم المكيدون " "أم لهم إله غير الله سبحانه الله عما يشركون" هذا أثر القرآن في رجل مشرك التفت إليه بسمعه وفؤاده. وروى الحافظ أبو بكر بن أبي الدنيا قال: خرج عمر بن الخطاب يعس المدينة ذات ليلة، فمر بدار رجل من المسلمين، فوافقه قائما يصلي، فوقف يستمع قراءته، فقرأ الرجل: "والطور وكتاب مسطور.. " حتى بلغ: "إن عذاب ربك لواقع ما له من دافع" فقال: "قسم ورب الكعبة - حق" فنزل عن حماره، واستند إلى حائط - وهو مروع النفس ... ! فمكث مليا ثم رجع إلى منزله، فمكث شهرا يعوده الناس لا يدرؤن ما مرضه !! رضي الله عنه. إن أمير المؤمنين عمر كان مفعتم الصدر بخشية الله وهو يمشي في أزقة المدينة يتفقد رعيته، وينص المسامع ليتعرف ما هنالك، كان الرجل الكبير يحمل هموم الجماهير، ويشهر ليقدم حسابا إلى الله عما ولد من شؤون الأمة. وكانت تلك المشاعر المصغوطة كالوقود الذي يرتفب شعلة ليلتهب، فلما سمع: "إن عذاب ربك ل الواقع .. " كان ذلك كافيا ليوجل قلبه، ويشحب وجهه، وتدمع عينه، ويؤوب إلى بيته عليلا، وما به علة إلا مخافة الله. وعمر - إن شاء الله - يبعث من الآمنين، فهو من السابقين الأولين والعشرة المبشرين، ولكن الضمير الحواس لا يعرف طمأنينة حتى يلقى الله بما أدى ووفى

وانما ذكرت هذه القصة لأنني مغيبط من رعاع يلتفون حول قارئ للقرآن ناعم الأوتار، فإذا هم يصيرون حوله بسفه، ما يفهون من معنى، ولا يستطيعون بعطة، تحول بهم مجلس القرآن إلى مجلس لغو ولهو، قبحهم الله!. وكم أساء المسلمون إلى كتاب الله، وإلى ذكر الله!! إن الآيات التي طار لها قلب امرئ واع - من سورة الطور - والتي ساقته - وهو مشرك - إلى الإيمان بالله، هذه الآيات بدأت بحملة واضحة: "فذكر بما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون ! هذا التذكير هو إنشاء برامج لحياة جديدة، هو بناء حياة من طراز راشد على أنقاض حياة بالية. والذكر هنا معاملة مع الله، وهي معاملة فيها تبادل نشاط وتقدير إن صح التعبير - والله المثل الأعلى - وهذا معنى يتضح من الحديث القدسي المشهور: ﴿يَقُولُ اللَّهُ: أَنَا عَنْ ذِنْ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعْهُ: إِذَا ذَكَرْنِي فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرْنِي فِي مُلَأِ ذَكْرَه فِي مُلَأْ خَيْرٍ مِنْهُمْ، وَإِنْ تَقْرَبْ إِلَيْ شَبِرًا تَقْرَبْ إِلَيْهِ ذَرَاعًا، وَإِنْ تَقْرَبْ إِلَيْ ذَرَاعًا تَقْرَبْ إِلَيْهِ بَاعًا، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتَهُ هَرْوَلَةً﴾ . وفي رواية عن أحمد بعد ذلك: ﴿.. وَاللَّهُ أَسْرَعَ بِالْمَغْفِرَةِ﴾ . إن هذا الذكر هو إقبال رجل على الله بعزم، وقبول الله لذلك، وإقباله عليه أجل وأذكي. ولصاحب الرسالة كلمات مضيئة في هذا الميدان نستهدي بها: ﴿مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُخْلِصًا دَخَلَ الْجَنَّةَ﴾ قيل: وما إخلاصها؟ قال: ﴿أَنْ تَحْجِزَهُ عَفَا حَرَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾ . كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن سبحانه الله وبحمده، سبحانه الله العظيم . الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد

لله تملآن ما بين السماء والأرض، والصلوة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء، والقرآن حجة لك أو عليك، كل الناس يغدو، فبائع نفسه: فمعتقها، أو مويقها . وعن ابن أبي أوفى، قالت أعرابي: يا رسول الله إني عالجت القرآن فلم أستطعه . لم أقدر على حفظه . فعلماني شيئاً يجزئ عن القرآن. قال له الرسول: ﴿قُلْ سُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَر﴾ وزاد في رواية: ﴿وَلَا حُوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ ، قال الأعرابي: يا رسول الله هذا لربّي، فمالى؟ قال: ﴿تَقُولُ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي وَارْحَمْنِي وَعَافْنِي وَارْزُقْنِي﴾ . أحسبه قال - واهدني ، ومضى الأعرابي فقال رسول الله: ﴿ذَهَبَ الْأَعْرَابِيُّ وَقَدْ مَلَأَ يَدِيهِ خَيْرًا...﴾ . والأحاديث في ذلك باب واسع، والذي يكتب عن النبي العربي محمد في الأخلاق يظن سنته كلها خلقاً، أو في الجهاد يظن سنته كلها جهاداً، أو في الذكر يظن سنته كلها ذكراً. إن ضخامة هذا الرسول ترد المتطلع وهو حسير، فسبحان من بعثه رحمة للعالمين. اللهم لك الحمد حمداً كثيراً خالداً مع خلودك، ولك الحمد حمداً لا منتهى له دون علمك، ولك الحمد حمداً لا منتهى له دون مشيئتك، ولك الحمد حمداً لا أجر لقائله إلا رضاك

نبى المرحمة ونبى الملهمة لا يستطيع ذو خلق أن يتهم محمداً بأنه كان يريد برسالته بسطة فى المال أو بسطة فى الجاه، أو حظا من حظوظ الدنيا. والمعروف في سيرته أنه كان أعلى الناس هتافاً بتوحيد الله وتمجيده، وأغیر الناس ضد نسبة الشركاء والشفعاء إليه، وأرغبهم في تنفيذ أمره، وتوقير وحيه، وإبعاد الأهواء عما شرع للخلافة. وقد كان يحزن - إلى حد الاعتلal - لصدود الجهال عنه ويسف لمضيهم في عمائمهم، ولكن الله عرفه أنه مكلف بالبلاغ، وحسب: "ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى إلا تذكرة لمن يخشى". وأفهمه أنه لا يقتاد الناس إلى الصراط المستقيم قسراً، وأن الحماس والإخلاص لا يحملانه على هذا المسلك: "ولو شاء ربك لأمن من في الأرض كلهم جمیعاً فأفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنین". لكن أتباع الأديان الأخرى أحسوا الخطر من الدعوة الجديدة، ورأوا أن ترك صاحبها يتحدد معناه انصراف الناس عنهم، فإن الإسلام له بالنفس الإنسانية قرابة، أليس صدى الفطرة؟ إن العقل يتقبله على عجل، وإن القلب يرغب فيه دون تكفل. من أجل ذلك اتخذ أعداء الإسلام طرقاً عديدة للصد عنه.

ولو كانت هذه الطرق مقارنة دليلاً بدللي، لربح الإسلام بهذا النزال، واطمأن إلى نتائجه لا.. إن الأمر مشى على سياسة الصلف والتحدي التي لا يحسن الأقواء غيرها: "وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن في ملتنا". إن هذه السياسة فرضت على النبي الصبور المكافح أن ينتصب للدفاع عن رسالته، وعن المستضعفين الذين اضطهدوا معه لاعتباها. إذا كنت تمشي في الظلام ومعك مصباح يضيء لك الطريق، فإنك قد ترفع مصباحك ليهتدى معك غيرك، وإن كره أحد الانتفاع بسنانك فليتعسف السير وحده، وليتعرض للحفر والمهالك ما شاء له هو، "قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها". لكن ما العمل إذا حاول سفيه يهوى الظلمة أن يكسر مصباحك؟ وبطfce شعاعك؟ أليس من حقك أن تقاتلهم لتسقطهم على الهدى لك ولغيرك؟ إن ذلك ما فعله محمد، "ومن أظلم من افترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام والله لا يهدي القوم الطالمين ي يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون". إن الذين يؤيدون سياسة تكسير المصابيح هم أشد الناس بغضاً لمحمد، وكراهاً للرسالة التي جاء بها، وهم

يدركون أن الضوء عدوهم لأنه يكشف باطلهم، ففي نور الحرية العقلية وحده يرفض الإنسان مبدأ التثليث في الألوهية ولو قيل له تسويغاً لذلك: إن المثلث خط واحد! ويرفض رب إسرائيل المتعصب لشعبه وحده، المزدرى لسائر الشعوب، الذي لم يتحدث عن الآخرة بكلمة. وقد شرع محمد يدعو إلى دينه، فلننظر في دعوته، أترى فيها أثارة لمجد شخصي، أو تطلاعاً لغاية دنيوية؟ هل رأينا في تراث إنسان آخر من هذا الحديث عن الله ووحدانيته ووجوب التقانى في مرضاته؟ ثم لننظر في القتال الذي خاض ميدانه، هل رأينا معتمداً بقوته أم مستنداً إلى قوة الله وحوله وطوله؟ هل رأينا يبغي شيئاً غير إعلاء كلمة الله؟ هل رأينا يقول: الويل للمغلوب، أو يجعل الظروف تقول ذلك، أم ترك حرية التدين عامة شاملة بعد ما قلم أظافر الطغاة؟.. لنستنطق التاريخ العادل. كانت معركة بدر أول قتال وقع بين الإسلام والوثنية، وذلك بعد خمس عشرة سنة من بدء الدعوة، ماذا كانت حال المسلمين خلال هذه المدة؟ كانوا مهدرى الحقوق، كانوا غرضاً قريباً لكل ذي عداون. وكان الرسول يشكو إلى الله ضعف قوته وقلة حيلته! ورفض الجاهليون كل الرفض الاعتراف بالإسلام، وعده ديناً يقبله المجتمع العربي. أخرج المسلمون من مكة - وهي الحرم الآمن - وكشرت الوثنية عن أنابتها، وبعد ما تم لها ما تريده أعلنت أن الهوان والطرد نصيب كل من يدخل في الإسلام، فهل يلوم أحد المسلمين إذا تصدوا لهذا التحدي، وقرروا الوقوف أمامه في حدود قواهم القليلة؟. وماذا يفعلون؟ لقد ارتقبيوا فرجاً مع الغد المجهول. وجاء هذا الفرج من حيث لا يحتسب أحد، فقد فرضت الظروف على المسلمين معركة بدر دون أن يستعدوا أو يخططوا لها، وشعر فريق منهم بالكره البالغ لهذا القتال المفروض، وتقدم المشركون للمعركة، وهم واثقون من دحر الإسلام، وحفر قبره هنا.

وأحس النبي عليه الصلاة والسلام أن التصدي لهؤلاء ما منه بد، وأن جهاد الماضي المر بالغ قمته اليوم، وأن حكم الله قد تتمخض عنه هذه الساحة التي مهدها القدر، فاتجه عليه الصلاة والسلام إلى ربه ينشد النجدة والحمى. قال ابن عباس : قال النبي صلى الله عليه وسلم وهو في قبته التي أقيمت له ببدر: ﴿اللَّهُمَّ إِنِّي أَشْدِكُ عَهْدَكَ وَوَعْدَكَ، اللَّهُمَّ إِن شَاءْ لَمْ تَعْبُدْ بَعْدَ الْيَوْمِ﴾ . فأخذ أبو بكر رضي الله عنه بيده، فقال: حسبي يا رسول الله فقد ألحث على ربك، فخرج النبي وهو يقول: "سيهزم الجمع ويولون الدبر بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر". وفي رواية: استقبل النبي الله القلة ثم مد يده فجعل يهتف بربه عز وجل يقول: ﴿اللَّهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ آتِنِي مَا وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ إِنْ تَهْلِكْ هَذِهِ الْعَصَابَةَ مِنْ أَهْلِ إِسْلَامٍ لَا تَعْبُدْ فِي الْأَرْضِ﴾ . فما زال يهتف بربه مادا يديه، حتى سقط رداوه. كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يشعر أن قريشاً أقبلت بكبريائها وبطرها تريد أن تنقض اضطهادها للإسلام بيوم أغير، وكان يعلم أن جمهرة المسلمين صارت البأساء والضراء أمداً طويلاً وهي متشبثة بدينها في وجه عناد شديد، فنظر إلى حالتهم قبيل القتال المرتقب وقال: ﴿اللَّهُمَّ إِنَّهُمْ جِيَاعٌ فَأَشْبِعْهُمْ﴾ . اللهم إنهم حفاة فاحملهم.. اللهم إنهم عراة فاكسمهم . لقد كلفهم الإيمان الكبير طوال السنين التي مضت. ولم يكن أحد يدرى أن الله - تبارك اسمه - قد تاذن بتغيير الوضع كله، فأغرى قريشاً بدخول معركة هي أغنى الناس عنها، ووضع المسلمين أمام أمر واقع لا يستطيعون عنه حولاً، لم؟ " و يريد الله أن يحق الحق ". بكلماته و يقطع دابر الكافرين ليحق الحق و يبطل الباطل و لو كره المجرمون

نعم، استجاب الرحمن لاستغاثة نبيه، وتنزل النصر المفاجئ فكان صاعقة كسرت ظهر الكفر، وجائزة ملأ أيدي المؤمنين بالخير، وصبغت وجوههم بالبشر. ولم يكن انتصار بدر هذا إلا فاتحة عهد آخر من الجهاد العسكري تجمعت فيه كل القوى المعادية للإسلام تريد الإجهاز عليه والخلاص منه. واستأنف النبي وصحابه العمل لريهم وآخرتهم. إن أطماء الدنيا لم تكن أمل هؤلاء الرجال الكبار! إن الموت من أجل المبدأ الجليل هو ما غرسه النبي فيهم، وهو أسعد نهاية يختتم بها مؤمن حياته! وقد تعلق المسلمون بهذا المعنى في أيام الرخاء والعافية، فهم في الأمان والضخمة يسألون الله الشهادة كما جاء في الحديث: `من سأل الله القتل من نفسه صادقا ثم مات، أو قتل، فله أجر شهيد` وفي رواية `من سأل الله الشهادة بصدق، بلغه الله تعالى منازل الشهداء، وإن مات على فراشه` . وبذلك التجدد لله تكونت أمّة وراء نبيها تنصر الحق، وتثار له، ولا تبالي بأنصبتها من الدنيا، وكانت دنياها في الأغلب رقيقة لما ارتبطت به من تكاليف، ولما حل بها من غربة. عن أنس بن مالك: خرج رسول الله إلى الخندق فإذا المهاجرون والأنصار يحفرون في غداة باردة، صباح شتاء قارس، فلما رأى ما بهم من النصب والجوع قال: `اللهم إن العيش عيش الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة` ، وكانوا يحفرون التراب وينقلون أكوامه على ظهورهم، وينشدون: نحن الذين بايعوا محمدا على الجهاد ما بقينا أبداً كان رسول الله حريضاً على أن يكون القتال لله لا لدنيا عارضة، وكان يأبى على رجاله أن ينشبوا الحرب أو يستمرروا الخصوم. فعن عبد الله بن أبي أوفى أن رسول الله في بعض أيامه التي لقي فيها العدو انتظر حتى مالت الشمس، ثم قام في الناس - خطيباً - قال: `أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو، واسألو الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت

طلال السيف ، ثم قال: اللهم منزل الكتاب، وجري السحاب، وهازم الأحزاب، اهزمهم وانصرنا عليهم . وفي رواية: اللهم منزل الكتاب، سريع الحساب، هزم الأحزاب، اللهم اهزمهم وزلزلهم . وهزيمة الأحزاب حول المدينة شأنها عجيب، فإن قوات الضلال في الجزيرة كلها أطبقت على المسلمين في مدينتهم، فإذا المسلمون في مأذق ضيق خانق ينذر باستئصالهم، وليس هناك بصيص أمل في بشر، اللهم إلا ما تصنعه السماء. وكان الظن أن المسلمين قد احتبسوا في مصيدة هي لا محالة مهلكتهم، وكان النبي الصارع لربه ينتظر منه العون لحظة بعد أخرى، فلا أمل إلا فيه. وبوغت الأحزاب الطامنة بالأجواء تتمخض عن عواصف أو أعاصير تخلع خيامهم، وتكتب آنيتهم، وتبعثهم يطلبون النجاة من حيث جاءوا، بعيداً عن هذه المدينة المنيعة. وانطلق صوت الإيمان داخل المدينة التي أشراق عليها الفرج يقول: الحمد لله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده . والثابت في خلق الرسول الكريم أنه كان شديد التوكل على الله والتحصن به والثقة فيه، كان إذا قاتل قال: اللهم أنت عضدي، ونصيري، بك أحول، وبك أصول، وبك أقاتل . وكان إذا خاف قوماً قال: اللهم إنا نجعلك في نحورهم، ونوعذ بك من شرورهم . وكان يكره التهريج والفوسي والصخب عند القتال، فالأمر جد، والسكينة أعون على طاعة الله، واستنزل نصره

وال موقف هنا يوجب استحضار قدرة الله، وفضله وغناه، وحاجة العباد أبداً إليه، وتسلّهم إليه بالبراءة من الحول والطول، ولقد ثبت أن من مواطن إجابة الدعاء وقت النقاء الجماعي، إنه كوقت السجود، وإنها الصوم، واستغفار السحر، وكل آناء التجرد لله، وطلب جداه. والأمة الإسلامية كلها من وراء الجبهة الساخنة تدعوا ربها وتسأله النصر، وهي في الصلوات الخمس تقنت، ترد النوازل، أو تقنت مع مطلع كل فجر طالبة من الله تأييد المجاهدين. ونختار من المأثورات الواردة، الدعاء الذي كان يقنت به عمر بن الخطاب وجيوش الإسلام تطرق أبواب المجنوسية والنصرانية، الديانتين اللتين طالما أذلتا الجماهير، وطاردتتا التوحيد. "اللهم إنا نستعينك، ونستفرقك، ولا نكفرك، ونؤمن بك، ونخلع من يفجرك" "اللهم إياك نعبد، ولك نصلّى ونسجد، وإليك نسعي ونحفد ، نرجو رحمتك ونخشى عذابك، إن عذابك الجد بالكافار ملحق". اللهم عذب الكفارة الذين يصدون عن سبيلك، وبكذبون رسلك ويقاتلون أوليائك". "اللهم اغفر للمؤمنات والمؤمنات والمسلمين والمسلمات. وأصلاح ذات بينهم، وألف بين قلوبهم. واجعل في قلوبهم الإيمان والحكمة، وثبتهم على ملة رسولك صلى الله عليه وسلم وأوزعهم أن يوفوا بعهدك الذي عاهدتهم عليه، وانصرهم على عدوكم وعدوهم، إله الحق، واجعلنا منهم". قال الإمام النووي: [..] واعلم أن المنقول عن عمر رضي الله عنه... "وعذب كفارة أهل الكتاب" لأن قتالهم - يعني المسلمين - كان مع كفارة أهل الكتاب. وأما [اليوم فالاختيار أن يقول: وعذب الكفارة فإنها أعم

ونحن نخالف الإمام النووي رضي الله عنه في اختياره الذي حور إليه دعاء عمر - وعنه نقلنا الصيغة المثبتة هنا - فإن كفارة أهل الكتاب هم في عصراً وعصر عمر مصدر البلاء الذي يعاني منه ديننا، وسر النكبات التي حاقت بأمتنا. بل إن الشيوعية زحفت من بعدهم، سواء في النصف الأيمن للاتحاد السوفييتي، الذي استعمره الفياصرة من قبل، أم في أرجاء العالم الإسلامي الذي أرغمه الاستعمار الصليبي على فتح أبوابه للشيوعية، كما أرغمه على فتح أبوابه للصهيونية. إن كفارة أهل الكتاب كانوا ولا يزالون من أشد الناس حقداً على الإسلام، ومواريثه، وقيمه كلها. ونعود إلى الجهاد النبوي كي نزداد بصيرة فيه. كانت محنّة المسلمين شديدة يوم طوق الأحزاب المدينة، وكان الخناق يشتد عليهم حتى ليقاد يعتصر أرواحهم، ومع ذلك ثبت الرجال في موقف الحراسة، وأحبطوا المحاولات الكثيرة التي قام

الكفار بها لاقتحام المدينة. وفي يوم من الأيام رأى المهاجمون أن يقوموا بعمل حاسم لإيقاع الهزيمة بال المسلمين، وإحداث ثغرة في استحكاماتهم ينفذون منها إلى قلب يثرب. وتلاحق الرجال يصدون هذا التسلل، وكان قد بدأ بعد الظهر، وظل الهجوم والدفاع مستمرتين حتى ول الأصيل وأقبل المغرب والمسلمون لا يستطيعون أن يصلوا العصر. كان الخطر شديدا على المدينة، ولم يجد الرسول وصحابه بدا من مواجهة العدو حتى تنكسر حدته. ووقف الهجوم بعد المغرب لما يئس المشركون من إدراك شيء. فصلى المسلمين العصر بعد وقتها، وكان النبي صلى الله عليه وسلم مغيظاً لما حدث

فقال `ملا الله قلوبهم وبيوتهم نارا كما شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر` وعن ابن مسعود قال: حبس المشركون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن صلاة العصر حتى احمرت الشمس أو اصفرت، فقال: `شغلونا عن الصلاة الوسطى، صلاة العصر، ملا الله أحوافهم وقلوبهم نارا` . إن هذا التعليق على الهجوم الفاشل يستحق التأمل الطويل.

إضافة وقت العصر كان محنـة حقيقة عند النبي عليه الصلاة والسلام، لقد فوت المشركون عليه أن يؤمـ أ أصحابـه في جمـاعة خـاسـعة تـناـجي رـبـها، تـرجـو رـحـمـته وتخـشـي عـذـابـه. لقد كانت سـعادـة هـذـا الإـنـسـانـ الجـلـيلـ أـنـ يـسـتـغـرـقـ فـي الصـلـاةـ، وـيـسـلـمـ وجـهـهـ وـمـشـاعـرـهـ فـي عـبـودـيـةـ كـامـلـةـ لـلـهـ رـبـ الـعـالـمـينـ. قال عـلـمـاءـ الـبـلـاغـةـ: الإـطـنـابـ فـي مـوـضـعـهـ حـسـنـ، وـمـثـلـوـ لـذـلـكـ بـإـجـابـةـ مـوسـىـ لـرـبـهـ لـمـاـ سـأـلـهـ: "وـمـاـ تـلـكـ بـيـمـيـنـكـ يـاـ مـوسـىـ؟"؟ كانـ الجـوابـ: عـصـايـ.. وـلـكـ مـوسـىـ

قالـ: "هـيـ عـصـايـ أـتـوـكـأـ عـلـيـهـاـ وـأـهـشـ بـهـاـ عـلـىـ غـنـمـيـ وـلـيـ فـيـهـاـ مـأـرـبـ أـخـرىـ" إـنـهـ أـطـالـ الرـدـ عـمـداـ لـيـطـيلـ الـوقـتـ مـعـ الـعـظـيمـ الـأـعـلـىـ، وـلـمـاـ يـخـتـصـ فـرـصـةـ الـعـمـرـ؟ـ وـخـاتـمـ الـأـنـبـيـاءـ عـلـيـهـ الصـلـاةـ وـالـسـلـامـ كـانـ يـرـىـ الصـلـاةـ مـعـرـاجـهـ الـذـيـ يـنـاجـيـ فـيـهـ رـبـهـ، أـوـ السـاعـةـ الـتـيـ تـصـلـ الـمـلـأـ الـأـعـلـىـ بـأـهـلـ الـأـرـضـ؟ـ مـنـ أـجـلـ ذـلـكـ كـانـ الصـلـاةـ لـذـتـهـ الـرـوـحـيـةـ، وـمـنـ أـجـلـ ذـلـكـ كـانـ غـضـبـهـ لـمـاـ شـفـلـهـ الـمـشـرـكـوـنـ عـنـ موـعـدـ لـقـاءـ مـعـ مـنـ يـحـبـ. وـعـلـاقـةـ الرـسـولـ مـعـ رـبـهـ حلـ شـأنـهـ تـسـتـحـقـ التـأـملـ الـعـمـيقـ فـيـ مـوـقـفـ آـخـرـ. فـقـدـ تـعـرـضـ الـمـسـلـمـوـنـ مـعـهـ لـانـكـسـارـ شـدـيدـ فـيـ مـعرـكـةـ أـحـدـ، وـقـلـ مـنـ الرـجـالـ الـعـظـامـ سـبـعـوـنـ هـمـ مـنـ خـيـرـةـ شـهـداءـ التـارـيخـ، وـأـصـيـبـ النـبـيـ عـلـيـهـ الصـلـاةـ وـالـسـلـامـ بـجـرـحـ نـافـذـ فـيـ خـدـهـ. وـمـعـ فـرـخـ الـمـشـرـكـيـنـ، وـشـمـاتـةـ الـعـدـوـ، وـآـلـاـمـ الـمـؤـمـنـيـنـ، فـقـدـ دـعاـ

النبي

عليه الصلاة والسلام إلى صلاة جامعة ليحمد الله على ما وقع!. روى الإمام أحمد قال: لما كان يوم أحد وانكفاء المشركون - عائدين بعد ما كان . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: `استووا حتى أثني على ربكم عز وجل ` فصاروا خلفه صفوفا. فقال صلى الله عليه وسلم: اللهم لك الحمد كله، اللهم لا قابض لما بسطت، ولا باسط لما قبضت، ولا هادي لمن أضللت، ولا مصل لمن هديت، ولا معطي لما منعت، ولا مانع لما أعطيت، ولا مقرب لما باعدت، ولا مباعد لما قربت!! اللهم ابسط علينا من بركاتك ورحمتك، وفضلك، ورزقك!! اللهم إني أسألك النعيم المقيم الذي لا يحول ولا يزول.. اللهم أسألك النعيم يوم العيляة، والأمن يوم الخوف!! اللهم إني عائذ بك من شر ما أعطينا، ومن شر ما منعتنا!!! اللهم حبب إلينا الإيمان، وزينه في قلوبنا، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان، واجعلنا من الراشدين!! اللهم توفنا مسلمين، وأحياناً مسلمين، وألحقنا بالصالحين غير خزايا ولا مفتونين ! اللهم قاتل الكفرا الذين يكذبون رسالك، ويصدون عن سبيلك، واجعل عليهم رجزك وعداك.. اللهم قاتل الكفرا الذين أتوا الكتاب. إله الحق!! . هذه دعوات ينسكب اليقين من كل حرف فيها، إن الهزيمة قد تكسر أفئدة الذين يعبدون الله على حرف. فأما الذين فنوا في الله وباعوه نفوسهم وأموالهم، فإن عبوديتهم تتألق في السراء والضراء، وهم يسلمون لله ما أراد، ويخلصون لحكمته. وذاك سر الكلمة الرقيقة الغالية التي قالها الرسول لصحابه بعد الهزيمة: . ` .. ` استووا حتى أثني على ربكم عز وجل

لما تألم المتنبي لشر ناله من سيده سيف الدولة قال: فإن يكن الفعل الذي ساء واحدا فأفعاله اللائي سررن ألوف! إن الموقف هنا شيء آخر، فإن النبي الجليل عد ما وقع قدرا يعلم الله حكمته، ولا يجرؤ على وصفه بالسوء، أنه يستعذ بالله من شر ما أعطى ومن شر ما منع على سواء، فربما كان العطاء مخوف العقبى، وربما كان المنع ألمًا في الحاضر، وخيرا في المستقبل. وحصن المؤمن أولاً وأخراً هو الله تبارك اسمه. وقد ختم الرسول دعاءه باستنزال بأس الله على المشركين، ثم ضم إليهم الكفار أهل الكتاب، وذاك أن اليهود في المدينة كانوا يتربصون الدوائر بال المسلمين. إنهم سيفرون كثيراً لما حدث، حسبهم الله! ولا شك أن ضربة أحد كانت موجعة، بيد أنها نفضت المجتمع الإسلامي نفذاً شديداً، فامتاز المنافقون، وانعزلوا بغشهم وخداعهم، وتعلم المسلمون كيف يواجهون الأحداث بإيمان حر، وصف ملتئم. وشمت اليهود للنكبة النازلة، ولكن لم تمض سنون حتى نزل بهم أضعافها، ثم تركوا قلب الجزيرة إلى حيث ألقى. قد يتحدث المؤرخون عن محمد المقاتل، وقد يصفون عبريته العسكرية ولكنهم يخطئون الخطأ الجسيم حين يعزلون هذا الجانب عن الجوانب الأخطر والأهم من سيرته الشريفة. لقد قاتل حين كان سفك الدم قصاصاً لضمان الحياة، أو حين يأمر بقتل مجرم، ولا يرون الطبيب مقاتلاً حين يأمر بيتر عضو. إن القتال الذي خاضه محمد وصحابه كان في سبيل الله، وما كان في سبيل مأرب شخصي، أو مجد ذاتي، أو توسيع إقليمي أو عرض آخر مما ألفه المؤرخون في سير القادة، والسياسة على اختلاف العصور.

قالت عائشة: "ما ضرب رسول الله بيده خادما له قط، ولا ضرب امرأة، ولا ضرب بيده شيئاً، إلا أن يجاهد في سبيل الله، ولا خير بين شيئاً إلا كان أحبهما إليه أيسرهما حتى يكون إثما، فإذا كان إثما كان أبعد الناس عن الإثم، ولا انتقم لنفسه من شيء يؤتى إليه إلا أن تنتهك حرمات الله، فيكون هو ينتقم للله عز وجل". وقال: إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق وجاء في وصفه عليه الصلاة والسلام: "ليس بفظ، ولا غليظ، ولا صخاب في الأسواق، لو يمر إلى جنب سراج لم يطفئه، ولو يمشي على القصب لم يسمع من تحت قدميه.. لا يقول الخنا، يفتح الله به أعيناً كمها، وأذاناً صما، وقلوياً غلفاً.. أسدده.. من كلام الله في هذه الرواية - لكل أمر جميل، وأهب له كل خلق كريم، أجعل السكينة لباسه، والبر شعاره، والتقوى ضميره، والحكمة منطقه، والصدق والوفاء طبيعته، والعفو والمعرفة خلقه، والحق شريعته، والعدل سيرته، والهدى إمامه والإسلام ملته.... إلخ". ولنترك هذه المرويات إلى مبادئ أساسية في الإسلام، كانت - بداعه - منطلق نبيه في جهاده فقد قال تعالى : " تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوها في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين" أي أن طلاب الاستعلاء في هذه الحياة، وناشرى الفساد في أرجائها مطرودون من رحمة الله. الواقع أن أغلب القادة الفاتحين، والساسة البارزين كانوا من هذا الطراز الذي يضحك من كلمة التقوى، ويهزأ من الدار الآخرة. وزبانية الاستعمار قدماً وحديثاً من هذا الصنف المقطوع عن الله، الجاهل كل الجهل بسبيل الله.

أما نبي الإسلام فهو لا يعرف إلا هذه السبيل ولا يقاتل إلا فيها. الإسلام قاطع في أن الذين يكذبون للدنيا وحدها، ويجدون ما وراءها لا تفتح لهم أبواب السماء، ولا ينتظرون فيها خيراً: "من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نور إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحيط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون" إن تلك التعاليم الرفيعة تكشف عن حقيقة القتال الذي خاضه محمد وصحابه! إنه لله أولاً وأخراً.

تحمله صاحب الرسالة الخاتمة كي يحمي الحق، ويرد عنه كيد الكاذبين، تحمله كي تبقى للركع السجود حرية العبادة، تحمله كي يقال: الله أكبر، فلا يجيء جبار وغد ليسد فم العابد الموحد. أما من قاتل ليهتف باسمه، أو ليغمض مالاً، قل أو كثراً، فليس له في الإسلام نصيب، ولا بـ"سبيل الله - صلة". إن نبي الملهمة هو النبي المرحمة، هو النبي الصلاة والزكاة، والبر والتقوى شخصية متكاملة، التقت فيها أمجاد الإنسانية الرفيعة كلها. وإذا كنا نقدم تفسيراً للقتال الذي أداره الإسلام فمن حقنا أن نطلب من القوى المعادية للإسلام تفسيراً لما صنعت ولا تزال تصنع بالإسلام وأمتها. إن الإسلام اصطدم أول تاريخه بالوثنية واليهودية والنصرانية، فهل تغيرت مواقف المشركين وأهل الكتاب منه بعد مرور أربعة عشر قرناً؟ أم لا يزالون يضنون عليه بحق الحياة؟ في الهند - حيث تسود الوثنية - نقرأ بين الحين والحين أنباء عن المذابح الطائفية هناك، وهذا هو العنوان المختار لقتل ألف المسلمين بالجملة.

وذكر المسلمين هناك أن القتل يستمر عندما يكون المسلمين في بلد ما أقل من خمس السكان! أما عندما يكون المسلمين حول النصف فإن المذابح تقل لأن المقاومة ترعب، وخسائر المهاجمين تزيد. وقد ذبح من المسلمين نحو المليون عندما أنشئت باكستان ولا يزال القتل الجماعي مصير المسلمين في مئات القرى. هل راجع الضمير الوثني نفسه في هذه المأساة؟ هل سيراجع نفسه يوماً؟ وقرأنا من شهور مقتل عشرة آلاف مسلم في تشاد ! وهذا الخبر المشؤوم نموذج لأخبار كثيرة عن مذابح المسلمين في إفريقيا الوسطى، منذ بدأ النشاط التبشيري يرسخ أقدامه هناك. والصلبية الحديثة هي المسؤولة عن هذه المجازر الكالحة. ولقد صرخت في قطر إسلامي عزيز، وأنا أقرأ هذه الأخبار طالباً من المسلمين أن يجعلوا للشهداء يوماً من أيام السنة نبكي فيه الدم المهدى والتوحيد المستباح. إن دمنا أرخص دم في دنيا الناس، ولو أن الكلاب قتلت بهذه الأعداد الكبيرة لغضب لها جماعات الرفق بالحيوان!! وفي أواسط هذا القرن الرابع عشر تحركت اليهودية، وتذكرت بغتة أن لها صلة بفلسطين، وببدأ الهجوم الصهيوني على مراحل. وفرض على العرب أن يستسلموا، فإذا وجدت رصاصة في بيت نسفت جدرانه، وسوى بالرخام. كم يبلغ قتلانا في فلسطين منذ بدأ غزوها؟ ألف وآلاف !!. ومطلوب من المسلمين الآن أن ينسوا ويستكينوا ! إن الذين قاتلوا الإسلام من قديم لا تزال قلوبهم مغلفة بالضغائن، ولا يزالون يبيتون الشر لمحمد، وتراته. والغريب بعد ذلك كله أن يتهموا الإسلام بالعدوان، وهم الذين

اسودت قلوبهم وصحابتهم بالمنكر من الأقوال والأفعال!!.. هل يترك هذا الطغيان يحق الباطل ويبطل الحق؟ هل يترك ليذل العزيز ويعز الذليل؟.. لقد أمر المسلمين أن يعتمدوا على الله، ويقاوموا هذا العنف، وقيل لهم: لا تقبلوا الضيم، ولا ترخصوا الحق: "فلا تهنو وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم". إن السلام هنا يعني الضياع المادي والأدبي، ولا يتقبله إلا جبان خاسر الدين والدنيا. وهذا سر عشرات ومئات الأحاديث والآيات التي أوصت بالجهاد، وهو جهاد - كما علمت - في سبيل الله لا إشباعاً لغرور، ولا تمشياً مع طمع، ولا جرياً وراء جاه، ولا عصبية لجنس، ولا دعماً لباطل في هذه الحياة، إنه منع للشرك أن يقهر التوحيد، ومنع للظلم أن يحتاج الحقوق ومنع للقوة أن تمحو العدل. في جو من التوقير والت Hibib نرمي رجالاً صنعتهم محمد المحب لربه، الراضي عنه، الفاني فيه، نفح فيهم من روحه فإذا هم ليوث بالنهار، رهبان بالليل، يؤثرون الله على أنفسهم، وينشدون قبوله بالنفس والنفيس. هم مجاهدون أتقياء ، أشداء على الكفار رحمة بينهم، من قتل منهم مات شهيداً في سبيل الله، ومن عاش منهم بقي حارساً يقطأ لكلمات الله. كان الواحد منهم ينزع نفسه من أحضان عروسه ليلقى - في سبيل الله - حتفه، وهو سعيد. كان الواحد منهم يذهل عن الأهل والعشيرة - في مجتمع قوامه العصبية للأهل والعشيرة - ويترعر布 بعقيدته، مستبدلاً أهلاً بأهل، وعشيرة بعشيرة.

وعندما أنظر إلى دنيا الناس الآن أرى العجب، لقد رأيت كثيرين باعوا دينهم بعرض من الدنيا، وقالوا كلمات الكفر حرضا على منصب أو تطلعوا إلى آخر، أو تركوا الحق يموت مستوحشا لأن إيناسه يغضب بعض الكباء. أين هؤلاء الصغار.. من الرجال الذين رياهم محمد فاستقر بهم التوحيد وكان مطاردا، وعرفت الآخرة في سيرتهم، وكانت مجاهولة؟؟. في المجتمع العالمي الآن يقال: إن خطتنا بناء دار لكل شاب، وتمليك سيارة لكل أسرة، وتمكين أفراد العائلة من كذا وكذا من وسائل الرفاهية، ثم ماذا؟ لا شيء. الحديث عن الله، والآخرة شيء مضحك.

أما محمد الوافد الغريب على أنصاره بالمدينة فيتوجه أول ما يتوجه إلى بناء المسجد منشدا مع البناء المتطوعين من صحبه. اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة، فانصر الأنصار والمهاجرة!!

. لقد بدأ يبني جيش الحق بكلمات من نور، أو من نار، يقول: لغدوة في سبيل الله، أو روحه خير من طلعت عليه الشمس . ثلاثة لا ترى أعينهم النار: عين حرست في سبيل الله، وعين بكت من خشية الله، وعين كفت عن محارم الله . رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها . رباط شهر خير من صيام دهر . من جهز غازيا في سبيل الله فقد غزا، ومن خلف غازيا في أهلها بخير فقد غزا . ما خالط قلب امرئ رهج - فزع وقلق - في سبيل الله إلا . حرم الله عليه النار

من بلغ العدو بسهم رفع الله له درجة، ما بين الدرجتين مائة عام . ` مقام الرجل في الصدقة في سبيل الله أفضل عند الله من عبادة الرجل ستين سنة . ` إن أبواب الجنة تحت ظلال السيف . وعن أبي هريرة، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ` يضمن الله لمن خرج في سبيله - لا يخرجه إلا جهاد في سبيله، وإيمان بي، وتصديق برسلي - فهو ضامن أن أدخله الجنة، أو أرجعه إلى منزله الذي خرج منه نائلاً ما نال من أجر، أو غنيمة. والذي نفس محمد بيده لولا أن أشوق على المسلمين ما قعدت خلاف سرية تغزو في سبيل الله أبداً، ولكن لا أحد سعة فأحملهم، ولا يجدون سعة، ويشق عليهم أن يتخللوا عنني. والذي نفس محمد بيده لوددت أن أغزو في سبيل الله فأقتل، ثم أغزو فأقتل ! . هذه الكلمات إلى جانب آيات الكتاب العزيز، إلى جانب التطبيق العملي لرسول ظل نحو ربع قرن - هو أمد الرسالة - دؤوباً منتظماً في نصرة رب كأنه كوكب دوار، لا توقف ولا شرود.. ذلك كله صنع الجيل الذي ثبت أركان الحق، وأرسى قواعده إلى آخر الدهر. الويل للعالم إذا نام الشرطة، واستيقظ اللصوص، وقد أسره محمد ليه وجند رجاله ليحرسوا مسيرة الحق، ويطاردوا العصابات التي ألغت الغارة عليه حيناً بعد حين. إن الرجل الذي تورمت أقدامه من طول تهجمه هو الذي انطلق في ميادين الكفاح المر يضرب ناشري الخرافات، ويمهد الأرض لغارسي الحقائق. ونؤكد مرة أخرى أنه ما اعتمد الإكراه وسيلة لغرس عقيدة، بل إن

أنبياء الله كلهم يأبون هذه الوسيلة في غرس الإيمان. الذي حakah التاريخ، ولا يزال يحكى، أن الضلال المسلح هو الذي يقوم بأعمال الفتنة والنهب، وأن موقفه من الإسلام لا ينطوي على مهادنة أو شرف. وهنا يجب أن نقدر محمداً قدره، إن توحيد الله سبحانه وتعالى هو الشيء الذي أطبق المرسلون عليه كلهم، ما يعرفون غير ذلك، ما يعرف آدم، ولا نوح، ولا إبراهيم، ولا موسى أن لله ولداً، هو إله معه، وذلك غير إله ثالث اسمه روح القدس!! إن هذا التشليث غريب على السماء، منكور الأصل والوجهة، ومن حق محمد - والأنبياء كلهم وراءه - أن يصرخوا بالحقيقة الواحدة، وأن يمنعوا كل عقبة تعترضها. إن الأرض والسماء وما بينهما تهتف مع محمد وهو يشق أحواز الفضاء بكلمات الأذان ؛ فإذا استحمر بشر، وظن الآلة عشرًا فليستحمر ما شاء، ولكن ليس له أن يستغل سلطته أو ثروته في إيذاء الموحدين، وأغلاق أفواههم. ويوم ينكسر سيفه، وهو يحاول قطع الطريق على قافلة الحق، فليذهب إلى الجحيم، ولا مكان للعطف عليه، أو إهانة الذين نجوا منه. وفي عصراً هذا تقع مفارقات مستغرية، هناك من يريد إقناع المسلمين بترك رسالتهم! والتذرع للحق الذي شرفهم الله به! والتخلف عن محمد خير من جاهد لتكون كلمة الله هي العليا!. وما أشك في أن هذا الصوت القبيح مستأجر للشيوخية أو الصهيونية أو الصليبية، ومصيره إن شاء الله إلى الاضمحلال والتلاشي، فإن الأوفقاء لله ورسوله سيبقون على العهد إلى قيام الساعة يؤمنون بالله، ويكررون بالجبن والطاغوت. وقد شاء الله أن تقترب الشهادة له بالوحدانية مع الشهادة لمحمد

بالرسالة، وذلك لأمر واضح، أن محمداً عليه الصلاة والسلام كان أشد الناس جواراً بذكر الله وحده، ومحو كل أثاره من شرك تتسلل إلى دينه. لقد تعلمنا منه أن نعرف الله معرفة اليقين، وأن نحبه الحب المكين وأن نتابعه وهو يردد : "قل إن صلاتي ونسكي ومحبتي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين" فماذا يقول الآخرون؟ إنهم يهربون بما لا يعرفون! والموعد ساحة العرض: "إنك ميت وإنهم ميتون ثم إنكم يوم القيمة عند ربكم تختصمون".

ختام هناك أئمة كبار لهم في دراسة السيرة الشريفة بصر أطول، وخبرة أعمق، وقد يستطيعون خيرا مني أن يتحدثوا في: "فن الذكر والدعاء، عند خاتم الأنبياء". بعضهم قرأنا له من علمائنا الأقدمين، وبعضهم سيتمنى عنه المستقبل؟ لأن التعرف على صاحب الرسالة العظيم، واكتشاف جوانب العظمة فيه لم يتم بعد، على كثرة الكاتبين، والدارسين. في شبابي كتبت *ـ فقه السيرة* *ـ وحسبت* أني أتيت بشيء طائل في الإبانة عن عظمة محمد صلى الله عليه وسلم! ثم عرفت *ـ بعد* *ـ أن محاولتي كانت محدودة، وإن كانت* *ـ بستر الله* *ـ غير مردودة.* ثم كلفتني *ـ إدارة الشؤون الدينية* *ـ بدولة قطر* أن أسطر هذه الصحائف فاستجبت. وكانت عدتني التي اعتمدت عليها عاطفة حيث تتحرك في قلبي نحو محمد صلى الله عليه وسلم، يجعلني حفيا بمناجاته لله، مشوقا إلى متابعته، والإفادة منه. لكن العاطفة الحارة لا تستر البصر الكليل، والهمة القاصرة. لذلك انتهيت من الكتابة، وقد استولى علي الشعور بالنقص، ثم

قلت: جهد المقل، ولعل غيري يتم ما بدأت. إن الكتابة في شمائل محمد صلى الله عليه وسلم وعبادته وفروسيته ميدان لا يزال ينتظر الرجال.. وأستغفر الله أولا، وآخرا. ` انتهى
ـ الكتاب والحمد لله أولا وآخرا

www.al-mostafa.com